الحلم.

إميل زولا.

ترجمة: حسام أبو سعدة.

(1)

فى عام 1860 كان الشتاء قاسيًا. و فى يوم الاحتفال بالكريسماس كانت الرياح الباردة تهب من الشمال الغربى. الجليد يتساقط منذ الصباح الباكر و فى المساء اكتست الشوارع و أسقف الدور بالجليد الكثيف.

بعد سهرة طويلة مرحة خلد الجميع إلـى النوم فـى هدوء. لم يكن هناك سوى صوت الأمطار و الجليد المتساقط. لم يكن فى الشوارع كائنٌ حىٌ سوى طفلة صغيرة فى التاسعة من العمر، ترتدى ملابس ممزقة بالية، تنتعل حذاءً رجاليًا، ترتجف و هى تختبئ جوار بوابة الكاتدرائية العتيقة. يبدو من الإعياء و الإرهاق البادیان فى وجهها أنها دارت كثيرًا فى الشوارع إلى أن وصلت إلى هذه البوابة.

البوابة العتيقة مشيدة على الطراز الرومانى المنمق بزخارف و نقوش كثيرة. أعلى البوابة تمثال لقديسة صغيرة السن، على اليسار نحت رائع لثلاث راهبات، و على اليمين نحت لثلاث راهبات أخريات. ست راهبات فى خدمة القديسة الصغيرة. البراءة واضحة فى ملامح القديسة، و الطفلة الصغيرة.

مكثت الصغيرة تحتمى بالبوابة لمدة ساعتين، تنظر إلى الفراغ و هى ترتجف. لا تدرى ماذا تفعل و أين تذهب. لاحظت وجود دار ملاصقة للكاتدرائية، على باب الدار لافتة مكتوب عليها "هيبر"، بائع ملابس الرهبان.

الدار تتكون من طابقين. من خلال البرج الصغير و نوافذه الصغيرة المحمية بحجر القراميد، ندرك أنها شُيدت فى أواخر القرن الخامس عشر، أى فى عهد الملك "لويس الحادى

عشر". و من خلال نوافذ الطابق العلوى الكبيرة نكتشف أنه تم ترميمها فى عهد الملك "لويس الرابع عشر".

الجميع هنا يعلم أن أسرة "هيبر" تمتلك هذه الدار منذ أربعمائة عام، و الجميع يعلم أيضًا أن "هيبر" ورث تجارة ملابس الرهبان عن أجداده القدامى. و عندما بلغ العشرين من العمر أحب فتاة صغيرة فى السادسة عشر. عشقها و هام بها رغم أن أمها كانت ترفض الزواج. و فى النهاية اضطر "هيبر" إلى اختطاف محبوبته و تزوجها. حملت الزوجة، و وضعت جنينها بعد ثمانية أشهر فقط، و كان الجنين ميتًا. فى هذا اليوم حزنت الأسرة كثيرًا لعدم وجود وريث لأملاك الآباء و الأجداد، و بالرغم من مرور أربعة و عشرين عامًا، مازال "هيبر" يبكى لفقدان الابن.

ارتجفت الصغيرة على صوت احتكاك، التفتت لتكتشف أن أحد نوافذ الطابق العلوى قد فُتحت على سيدة رائعة الحسن. السيدة تكشف عن ذراعيها البضتين رغم برودة الجو. و عندما لاحظت السيدة وجود الطفلة رمتها بنظرة احتقار ثم أغلقت النافذة بسرعة.

بعد قليل فُتحت نافذة أخرى فى الطابق الأرضى يطل منها السيد "هيبر" و زوجته يتأملان الصغيرة و فى أعينهما نظرات الحزن.

ارتجفت الصغيرة من نظراتهما فراحت تختبئ خلف أحد أعمدة البوابة الضخمة و هى تضم ساقيها إلى صدرها فى قلق. بدأت المحلات التجارية تفتح أبوابها. خرج الناس إلى الشوارع. كيف ستواجه هؤلاء الناس؟!...

انتفضت عندما رأت أمامها السيدة "هيبرتين" زوجة "هيبر"، سألتها السيدة فى شفقة:

- يا صغيرتى، ماذا تفعلين هنا؟ من أنت؟

انكمشت الصغيرة و لم تقل شيئًا، فذهبت السيدة "هيبرتين" ثم عادت بعد قليل و هى تحمل الخبز الساخن و قالت لها:

- يا صغيرتى، لا تستطيعى البقاء كثيرًا جوار هذه البوابة.

قال السيد "هيبر" الذى كان يرقب ما يحدث من ردهة الدار:

- آت بها إلى هنا.

لم تقل "هيبرتين" شيئًا، حملت الصغيرة بذراعيها القويتين، اصطكت أسنان الطفلة من البرد و الألم كأنها عصفور صغير دون رياش سقط من عشه قبل أن يتعلم الطيران.

اتجهت بالطفلة إلى المطبخ الذى كان فى آخر الدار. الأثاث قديمًا متهالكًا، المدخنة تدل على أن هذا المطبخ لم يُجدد منذ قرنين تقريبًا. الماء يغلى على الموقد. الأوانى النحاسية تبرق كالذهب.

وضع السيد "هيبر" الخبز على المنضدة ثم جلس جوار زوجته يتأمل الصغيرة. الملابس البالية المبتلة تكشف عن جسد هزيل يعانى كل أنواع الألم و الحرمان. أصابع أرجلها تخرج من ثقوب الحذاء الرجالى. نظراتها زائغة تائهة. يبدو أن ذراعها اليمنى مُصابة لأنها لا تتحرك أبدًا.

قالت السيدة "هيبرتين":

- لا نريد إيذائك. من أنت؟ و من أين؟

التفتت الصغيرة فى فزع كأنها تتوقع أن هناك شخصًا ما سيضربها من الخلف. ثم دارت ببصرها تتأمل المكان من حولها. اندهشت عندما اكتشفت أن النافذة تطل على الكاتدرائية. ارتجفت عندما بدأت حرارة الموقد تبعث فى جسدها بعض الدفء . ثم عادت "هيبرتين" تسأل:

- هل أنت من "بومون"؟... من والدك؟

لم تجب الصغيرة، فقال"هيبر" مشفقًا:

- بدلًا من كل هذه الأسئلة يجب أن نقدم لها فنجانًا من القهوة بالحليب.

قدمت لها "هيبرتين" الشراب الساخن بالإضافة إلى قطعتين من الخبز الطازج. أكلت الصغيرة و شربت بيدها اليسرى فقط، فقالت "هيبرتين":

- ذراعك مجروحة إذًا؟ أرينى مكان الجرح.

حاولت "هيبرتين" فحص الذراع اليمنى فهبت الطفلة واقفة فى فزع و ترقب. سقط منها الدفتر الصغير الذى كانت تدسه داخل ملابسها، حاولت التقاطه بيد أن يد "هيبرتين" كانت الأسرع. بُهتت الصغيرة، شحب لونها و هى ترى الغرباء يقرأون دفترها.

كان الدفتر المكون من أربعة صفحات يدل على أنها لقيطة. اختاروا لها اسم "أنجيليك" مثل كل اللقطاء. وُلدت يوم 22 يناير عام 1851، أُودعت فى الملجأ اليوم التالى تحت رقم 1634. و لا أحد يعلم شيئًا عن مكان الميلاد أو أهلها.

هتفت "هيبرتين" فى دهشة:

- لقيطة؟!

صرخت الصغيرة فى جنون:

- أنا أفضل من الآخرين، أفضل من الجميع. لم أسرق شيئًا من أحد، و هم يسرقون منى كل شىء.. أعيدى إلىّ ما سرقتيه منى.

اندهشت "هيبرتين" عندما رأت اللقيطة المسكينة الخائفة تتحدث بغرور و ثقة لا حدود لهما، فقالت بحدة:

- يالك من خبيثة.

أكمل "هيبر" قراءة الدفتر بصوت عال: احتضنتها السيدة "فرانسواز" يوم 25 يناير 1851، و لا يوجد أية بيانات عن

الحاضنة سوى أنها كانت تعيش مع زوجها السيد "هاملين" فى " نيفار".

قالت "هيبرتين " فى اندفاع:

- على كل حال "نيفار" ليست بعيدة عن هنا.

ارتجفت الصغيرة من الغضب الواضح فى عينيى "هيبرتين" فقالت:

- كنت أنظف الحظائر و أثناء الليل أنام جوار البهائم.

أكمل "هيبر" قراءة الدفتر:

- انتقلت إلى باريس تحت رعاية السيدة "تيراز" فى 20 يونيو 1860.

اندفعت "هيبرتين":

- ذهبت إلى باريس للعلاج، أليس كذلك؟

نفت الصغيرة، و بدأ "هيبر" و زوجته ملاحقتها بالأسئلة لاكتشاف الحقيقة رويدًا رويدًا...

السيدة "تيراز" ابنة عم "فرانسواز". انتشلت "تيراز" الطفلة من قسوة "فرانسواز" بدافع الشفقة و الرحمة. و بعد قليل توفى زوج "تيراز" و اضطرت للرحيل للعيش برفقة أخيها. و هنا انتقلت حضانة الطفلة إلى أسرة "رابييه". همهمت "هيبرتين" قائلة:

- "رابييه". أعرفهم، أصحاب المدبغة. الزوجة سيئة السمعة.

قالت الصغيرة و هى ترتجف:

- كنت أعمل طوال النهار فى المدبغة. و بعد العمل تضع لى السيدة الخبز على الأرض مثل القطط و الكلاب. و فى كثير من الأحيان كنت أنام دون طعام. كاد الجوع أن يقتلنى. و بالأمس، أثناء الاحتفال برأس السنة شربا كثيرًا و راحا يسخران منى و يضربانني. و فى آخر الليل أُغشى عليهما من السكر... كنت أفكر كثيرًا فى الهرب لكن ما كان يمنعنى هو هذا الدفتر. السيدة

"تيراز" أخبرتنى أن هذا الدفتر أهم شىء بالنسبة لى. و كانت زوجة "رابييه" تحتفظ بهذا الدفتر فى خزانة ملابسها. خطفت الدفتر و جريت إلى الشارع، و فى النهاية وصلت إلى بوابة الكاتدرائية.

بعد أن انتهت الطفلة من قصتها انفجرت فى البكاء و هى ترتجف من البرد و الخوف. ربت عليها السيد "هيبر" برفق، شعرت الصغيرة بحنانه فقالت متوسلة:

- أرجوك...لا تعيدنى إلى "رابييه".

التفت "هيبر" إلى زوجته قائلًا:

- من الممكن أن تكون ابنتنا.

هتفت "هيبرتين" فى فرح:

- أعتقد ذلك.

في صباح اليوم التالى، انطلق "هيبر" إلى ابن عمه المحامى و طلب منه القيام بالإجراءات اللازمة. اهتم "هيبر" و زوجته كثيرًا بالطفلة، سعدا بها، و بعد عشرة أيام اصطحباها معهما إلى الكاتدرائية لأداء الصلاة. و فى هذه اللحظة بدأت الطفلة ترى الكاتدرائية بشكل مختلف.

(2)

مدينة "بومون" تنقسم إلى قسمين منفصلين تمامًا. "بومون" المدينة المُقامة جوار الربوة، ضاحية عتيقة. معظم الورش هنا تعمل فى الغزل و النسيج و صناعة الملابس. و لأن عدد السكان هنا يقترب من العشرة آلاف نسمة، أصبح أصحاب الورش و التجار أثرياء. و بهؤلاء الأثرياء أصبح هذا القسم أكثر رقيًا و تحضرًا من القسم الآخر القابع فوق الربوة.

على الربوة "بومون" الدينية، حيث توجد الكاتدرائية الضخمة التى يعود تاريخها إلى القرن الثانى عشر، و المطرانية التى شُيدت فى القرن السابع عشر. الشوارع ضيقة صغيرة تخنق حوالى ألف نسمة.

الكاتدرائية هى كل شىء هنا. هى الأم و هى الملكة. تبدو فى غاية الضخامة جوار البيوت الصغيرة. كل الحياة هنا مُسخرة من أجل الكاتدرائية. الورش لا تعمل و المتاجر لا تبيع إلا ملابس الرهبان و غذائهم و لوازم الكاتدرائية الأخرى. و إذا قابلت أحدًا من الطبقة البورجوازية فاعلم أنه آخر أفراد المجتمع السابق البائد. و لهذا فإن البلدة تعيش فى أمان و سلام.

فى هذه الضاحية المُتقشفة كان منزل "هيبر" هو الأقرب إلى الكاتدرائية. من الواجهة الأمامية يبدو كأنه جزء من نسيجها، يعيش فى حمايتها، يشاركها بعض الأسوار و الجدران. منح أحد الرهبان، فى العصور الغابرة، جد "هيبر" الأكبر رخصة البناء بعد أن تأكد من صدق إيمانه و ولائه التام للكاتدرائية. و أصبحت الأسرة كلها فيما بعد تدين بهذا الولاء كأنه جزء من الميراث.

فى خلف الدار توجد حديقة صغيرة محاصرة بين الدار و قبة الكاتدرائية و أبراجها. الصمت هنا مهيبًا لا يخترقه إلا رنين

الأجراس من حين لآخر. ضوء الشمس لا يصل أبدًا إلى أرض الحديقة الضيقة، فأصبح لا ينمو بها إلا اللبلاب الذى أصبح متوحشًا بالإضافة إلى بعض الأعشاب عديمة الجدوى.

فى هذه الدار، عاشت "أنجيليك"، الطفلة اللقيطة، لمدة خمس سنوات. عاشت مثل راهبة معتزلة فى الدير. لا تخرج من الدار إلا كل يوم أحد لأداء الصلاة فى الكاتدرائية فى السابعة صباحًا. رفضت "هيبرتين" إرسالها إلى المدرسة لأنها تعتقد أن الاختلاط بالآخرين يفسد العقول و يدمر مكارم الأخلاق. لا بد من الحفاظ على الصغيرة و تربيتها تربية محترمة راقية.

أصبحت هذه الدار هى كل العالم بالنسبة للطفلة. تعيش فى حجرة صغيرة فى السندرة جدرانها مطلية بالجير. تذهب إلى المطبخ كل صباح لتناول الإفطار ثم تصعد إلى المشغل عن طريق سلم حلزونى ضيق حيث تنهمك فى العمل طوال فترة الصباح. لم تحاول أبدًا الدخول إلى حجرة "هيبرتين"، لكنها كانت تحب كثيرًا الجلوس فى الصالون الموجود بالطابق السفلى.

فى الصالون، مازال السقف يستند إلى الدعائم الخشبية. فى أحد الأركان دفاية رخامية عتيقة، الأثاث الداكن يتكون من كنبة واحدة و أربعة مقاعد ضخمة. الأثاث مازال مكسوًا بالمخمل. لم يتم تجديد هذا الصالون منذ أربعمائة عام، باستثناء ستار النافذة التى تم تجديدها مرتين أو ثلاث.

النافذة تطل على شارع الصاغة حيث يصطف طابور طويل من محلات الصاغة و تجار الشمع. يفترشون بضائعهم أمام المتاجر و لا يوجد زبائن أبدًا. و بالرغم من ذلك، تفرض هيبة الكاتدرائية الشعور بالرضى فى نفوس التجار.

كانت ثقافة "هيبرتين" ضحلة، لا تعلم سوى القراءة و الكتابة و قواعد اللغة الأساسية. بالرغم من ذلك بدأت فى تعليم و تثقيف الصغيرة. لم تستجب الصغيرة للتعليم بيسر و سهولة. كانت كثيرة الشرود إلى النافذة المطلة على الحديقة و هى تترقب

لحظة الانتهاء من الدرس بصبر نافد مثل كل الأطفال. رغم اهتمامها بالقراءة إلا أنها كانت ضعيفة فى الإملاء، لم تنجح أبدًا فى كتابة صفحة كاملة دون أخطاء، و مع ذلك كان خطها جميلًا أنيقًا. لم تحاول "هيبرتين" تعليمها التاريخ و الجغرافيا و الحساب. كل هذه العلوم بلا فائدة. يكفى جدًا إتقان قواعد اللغة حتى تتمكن الصغيرة من قراءة الكتاب المقدس.

رغم هدوء و صبر "هيبرتين" و زوجها إلا أنهما أُصيبا بخيبة الأمل فى العام الأول. وعدتهما الصغيرة بالهدوء و الاستقامة لكنها كانت تقفز فجأة، ثم تسترخى فجأة دون أية مقدمات. تسرق السكر فى مكر و دهاء، ترميهما بنظرات الغضب. و عندما يحاولان تأنيبها و تهذيبها تُصاب بنوبة الغرور، تثور و تغضب، و فى غضبتها تتحول إلى وحش كاسر.

ندم الزوجان على احتضانها، قلقا على أنفسهما من الشيطان الماكر الكامن بداخلها. لا شك أن هؤلاء اللقطاء لا يأتون إلا من الزنا، لا شك أن والديها وغدين مجرمين. ترى من تكون هذه الطفلة؟ و من أين؟.... و فى النهاية قررا إعادتها إلى الملجأ. أُصيبت الطفلة بالهلع عندما علمت بهذا القرار، بكت بشدة، ارتمت تحت أقدامهما و هى تعدهما بالطاعة، و تسامح الزوجان...

مع مرور الأيام، بدأت "هيبرتين" تتعلم كيف تتعامل مع هذه الشيطانة الصغيرة. لقد كانت"هيبرتين" تنعم بروح صافية و قلب طيب طاهر مفعم بالإيمان. بدأت تعلم الصغيرة من خلال التعاليم الدينية أن الزهد و الهدوء عكس الانفعال و الغضب، الطاعة عكس الغرور. الطاعة تعنى الحياة. لا بد من طاعة الله، طاعة الوالدين، و طاعة من هم أكبر سنًا و مركزًا. و عندما لا تستجيب الطفلة لهذه التعاليم تعاقبها عن طريق الأعمال المرهقة مثل غسل الأطباق و الأرض و نظافة المطبخ. و فى النهاية بدأت الصغيرة تتعلم الطاعة لكنها ظلت على صخبها و ضجيجها و

انفعالاتها العنيفة، ثم تفاجئها من حين لآخر بتقبيل يدها دون سبب واضح.

لاحظت "هيبرتن" اهتمام الصغيرة بالصور، خاصة صور "العذراء" و "المسيح". رأتها ذات يوم و هى تقبل صورة المسيح و تبكى بحرارة حتى أُغشى عليها. نهرتها من فعل ذلك خوفًا على عقلها الصغير، قررت مصادرة الصور فثارت الصغيرة و اشتعلت عيناها ببريق الغضب.

فى هذا اليوم، تذكرت "هيبرتين" ما قرأته فى دفتر الطفلة: عندما يحين موعد توقيع الحاضن فى الدفتر كل ثلاثة اشهر تصبح الطفلة فى غاية الهدوء و الطاعة، فى هذه الليلة يضطرب قلبها و لا تغفو عينيها. هددت "هيبرتين" بتدوين كل أخطائها في الدفتر، فانهارت الصغيرة و هى تقبل يدها و أرجلها و تقول: أعلم أنكم أخطأتم لاحتضانى، أعلم أنه ليس من حقى أن أشارككم الطعام و لا الحياة فى هذه الدار. و راحت "هيبرتين" تربت على رأسها برفق إلى أن أعادت الهدوء إليها.

بلغت "أنجيليك" الثانية عشرة فى هذه الدار الهادئة القابعة فى ظل الكاتدرائية. الدار معزولة تمامًا عن الآخرين. لا أحد يزورهم و لا يزورون أحدًا. لا يوجد شىء هنا سوى العمل اليومى فى المشغل فقط. بالرغم من ذلك فالدار دافئة عامرة بالحب العميق الذى يربط "هيبر" بزوجته.

لم يستطيع "هيبر" التخلص من عقدة الذنب منذ وفاة ابنهما الوحيد. يشعر بأن الله يعاقبهما لأنه تزوج بدون موافقة حماته، و فى أحيان كثيرة يكون على يقين بأن حماته المتوفية مازالت تفكر و تخطط فى قبرها لإفساد حياته. و لذلك فهو يجاهد كثيرًا، يفعل كل ما يستطيع من أجل إسعاد زوجته. و لذلك أيضًا، فإنه راض قانع بوجود "أنجيليك" فى الدار، ربما تكون عوضًا عن ابنهما الفقيد، ربما تُسعد زوجته بالإحساس بالأمومة الضائع.

بالرغم من كل هذا الحب لم يُقبل زوجته أبدًا أمام الطفلة. كان على قناعة تامة أنه يجب تربيتها تربية دينية محترمة. و فى المساء، عندما يدخلا إلى حجرتهما يشعر كل منهما كأنه فى ليلة العرس الأولى. نفس البهجة و اللهفة، نفس الحب العميق، بل ربما أصبح أكثر عمقًا. و لذلك كانا حريصين على أن تظل الحجرة كما هى منذ عشرين عامًا. مازالت الحوائط مطلية باللون الأبيض و الرمادى. مازالت صور الورود مُعلقة فى أماكنها. كانت هذه الحجرة الصامتة هى نبع الحب و الحنان لأسرة "هيبر". و شعرت "أنجيليك" بمدى طهارة و نقاء هذا الحب.

و فى ذات يوم، عثرت "أنجيليك" فى المشغل على كتاب قديم. يبدو من التراب الكثيف المُلتصق بالكتاب أنه مُهمل منذ زمن بعيد جدًا. أثار هذا الكتاب فضولها فانهمكت فى تنظيفه بحرص شديد إلى أن بدا لها العنوان بحروف مذهبة "الأساطير الذهبية". تحت العنوان اسم المؤلف "جاك دو فوراجين"، ثم التاريخ يعود إلى عام 1549.

فى البداية، انبهرت بالصور الملونة الكثيرة، رسومات تذوب رقة و عذوبة لقديسين و قديسات. تعثرت في قراءة قصص هؤلاء القديسين. بكت بشدة لعذابهم و آلامهم. انبهرت بمعجزاتهم. كما كان الكتاب يحتوى على قصص و ألاعيب الشياطين، يصف الكتاب كيف يتفننون فى غواية الإنسان و محاربة الخير. من خلال هذا الكتاب عاشت الصغيرة صراع الخير و الشر. أصبحت تحلم كثيرًا بالقديسين و الشياطين. و من خلال هذا الكتاب العتيق أصبحت تجيد القراءة بمنتهى اليسر و السهولة.

بلغت "أنجيليك" الثانية عشرة. و عندما حان موعد تناول القربان لأول مرة فى حياتها تذكرت كل ما قرأته و حفظته من هذا الكتاب. شعرت فى الكنيسة العتيقة بأنها قديسة تحظى بحب و اهتمام الرب.

فى هذا اليوم، غمرت السعادة "هيبرتين"، بكى "هيبر" و هو ينصت إلى الطفلة و هى تقرأ الكتاب المقدس بصوت ملائكى. و فى المساء، عاد الزوجان إلى الدار ذاهلين صامتين.

شعرت "هيبرتين" بحماس الصغيرة و انفعالاتها البرئية الجياشة. المسكينة تكاد تذوب رقة و عذوبة، تكاد تنفصل عن الواقع و مادياته، فبدأت تتحاور معها كثيرًا لتعيد إليها توازنها النفسى. و كانت الصغيرة طائعة صابرة.

بعد عامين، بدأ الزوجان يفكران فى تبنى الطفلة. لقد استطاعت أن تعيد إليهما الأمل فى الحياة، و لا سبيل للاستغناء عنها بأية طريقة. أخبراها برأيهما، فارتمت فى أحضانهما و هى تبكى و تؤكد لهما أنها ستكون ابنة طائعة صالحة بارة بأهلها.

فى اليوم التالى بدأ "هيبر" إجراءات التبنى. وافق القاضى لكنه تساءل محذرًا:

- ألا ينبغى البحث عن أسرتها قبل التبنى.

قرر"هيبر" السفر إلى "باريس" بحثًا عن أسرتها، و عندما سألت الصغيرة عن سبب هذه الرحلة المباغتة أجاب:

- يجب تقديم بعض الأوراق الخاصة بالتبنى.

كان "هيبر" يعتقد أنه سيصل إلى الحقيقة الكاملة خلال يوم واحد فقط. لكنه قضى فى "باريس" أسبوعًا كاملًا. العقبات تواجهه فى كل خطوة. فى قسم الشرطة علم أنهم يحتفظون بهؤلاء الأطفال لمدة ثلاثة أيام فقط ثم يرسلونهم إلى الملاجئ. راح يبحث عن أية معلومات فى أربع إدارات مختلفة دون جدوى. فحص الدفتر بدقة فاكتشف أن السيدة "فوكار" التى أودعتها فى القسم، تقيم فى "بومون". عاد إلى "بومون" ليكتشف أن السيدة "فوكار" انتقلت إلى "باريس" فعاود الرحيل مرة أخرة.

عندما علمت السيدة "فوكار" سبب زيارته قصت عليه الحقيقة كاملة. والدة الطفلة هى السيدة "سيدونى" و كان أخوها وزيرًا. دفعها الطمع لاستغلال سلطة أخيها للقيام بصفقات تجارية

مشبوهة. و فى ذات يوم التقت تاجر كبير من مدينة "بروفانس". و بدأت هى و زوجها يخططان لنهب ثروة هذا التاجر. و بعد وفاة زوجها بخمسة عشر شهرًا رأينا معها هذه الطفلة. فى هذه الأيام كانت السيدة "سيدونى" لا تملك مليمًا واحدًا. لكنها الآن تمتلك متجرًا فاخرًا لتجارة الدانتيل بالإضافة إلى ثلاث بدرومات كبيرة حيث تتاجر بكل شىء و أى شىء. لا يجب أن تعلم الطفلة أن أمها بمثل هذه الحقارة.

اتجه "هيبر" إلى متجر السيدة "سيدونى". كانت السيدة نحيفة شاحبة، يصعب تحديد سنها، و يصعب تمييزها عن الرجال. ترتدى ثوبًا أسودًا. امرأة باردة خالية من أى شعور. حتى ذكرى ابنتها لا تحرك مشاعرها المتبلدة.

عاد "هيبر" إلى بلدته ليجد القاضى قد انتهى من أوراق التبنى. ثم اتجه إلى الدار، التقت عيناه بعينيى الصغيرة فأدركت السبب الحقيقى لسفره فقال فى ألم:

- يا صغيرتى، أمك ماتت.

بكت الطفلة و هى تلقى بنفسها فى أحضانه.

(3)

فى يوم الاحتفال بعيد الحصاد، اصطحبت أسرة "هيبر" الطفلة إلى ضيعة قصر "هوت كير" الذى يحتكر تجارة الخيوط فى المنطقة. الضيعة تبعد فرسخين من "بومون". هناك انطلقت "أنجيليك" تجرى، تلهو و تضحك فى الحدائق الغناء. و فى اليوم التالى، لم تستطع الاستيقاظ فى السابعة صباحًا – مثل كل يوم – من شدة التعب و الإجهاد. اضطرت "هيبرتين" إلى أن تدق باب حجرتها و هى تقول ساخرة:

- ماذا بعد أيتها الكسولة؟ لقد تناولنا الإفطار.

استيقظت "أنجيليك" فى خفة و نشاط، و بعد أن تناولت إفطارها بمفردها جرت إلى المشغل حيث وجدت "هيبر" و زوجته ينهمكان فى العمل.

كان المشغل بدائيًا، مساحته فسيحة، نوافذه تطل على الحديقة. مازال السقف يستند إلى الدعائم الخشبية، منحوت على إحدى الدعامات رقم 1463. فى هذا العام تم تشييد الدار. طلاء الحوائط لم يُجدد منذ مائة عام تقريبًا. الدفاية التى تعود إلى عصر "لويس الرابع عشر" منمقة بزخارف فى غاية الدقة و الروعة. يتم استغلال الدفاية الضخمة الآن فى تخزين الرسومات و النقوش التى يقومون بتطريزها فى ملابس الرهبان و الراهبات، و يتم تدفئة المكان الآن عن طريق موقد صغير. قالت "أنجيليك" و هى تدخل المشغل:

- نمت كثيرًا. يجب تسليم هذا الثوب يوم الأحد.

قالت "هيبرتين" مشجعة:

- أعدك بأفكار جيدة خاصة بحديقتك لو نجحنا فى تسليم الثوب فى الموعد المحدد.

التمعت عينا الصغيرة ببريق خاطف و هى تقول:

- حقًا يا أمى!... سأعمل بكل طاقتى. أين غطاء الإصبع. الأدوات تختفى بمجرد أن نتركها.

أخفت إصبعها فى الغطاء العاجى ثم جلست أمام النول بجوار النافذة و هى تتأمل المكان حولها. رغم أن فن التطريز تطور كثيرًا و أصبحت هناك رسومات حديثة إلا أن كل التصميمات التى تتم هنا يعود تاريخها إلى منتصف القرن الماضى. استنشقت "أنجيليك" نفسًا عميقًا و هى تقول:

- الجو رائع. الحياة جميلة.

و قبل أن تنهمك فى العمل شردت برهة بجوار النافذة و هى تستمتع بأشعة شمس مايو الدافئة و رائحة الورود الآتية من حديقة المطرانية القريبة ثم قالت بسرعة كأنها تذكرت شيئًا:

- أبى، أحتاج إلى الخيوط المذهبة.

أتي لها "هيبر" ببكرة الخيط و هو يسأل:

- هل هذا يكفى؟

- نعم.

ثم راحت تتأكد من وجود كل شىء جوارها. بكرات الخيط الحمراء، الخضراء، و الزرقاء. بكرات الخيط المذهب و الحرير. ثم راحت تتأكد من وجود المقصات و الإبر من كل المقاسات التى ستعمل بها ثم انهمكت فى العمل.

لقد نجحت " أنجيليك" فى إتقان فن التطريز. تعلمت كل المبادئ و الأصول من أسرة "هيبر"، ثم بدأت تضيف لمساتها الفنية من خيالها الخصب و مشاعرها المتدفقة. يعترف كل سكان الضاحية بمهارتها. بهرت الرهبان بإبداعاتها المرهفة. طرزت الكثير من الشارات و الأعلام و المعاطف، لكنها برعت أكثر فى حُلة القداس بجميع أنواعها، البيضاء الخاصة بالمرشدين، الحمراء للمبشرين، السوداء للجنازات، البنفسجية الخاصة بالتنصير، و الخضراء للأعياد و المناسبات. فى صدر الثوب تبدع فى صورة المسيح و العذراء. فى الكم تكاد الورود تُطلق

عبيرها فى الهواء. و بمرور الأيام أصبحت أسرة "هيبر" تسند إليها المهام الصعبة الدقيقة. و أصبح جميع الوجهاء و ذوى المناصب الرفيعة لا يقنعون إلا بفنون هذه الصغيرة البريئة.

مرت ساعة من الصمت، الجميع ينهمك فى العمل، ثم قالت "أنجيليك":

- كان يومًا سعيدًا منعشًا فى ضيعة "هوت كير".

فقالت "هيبرتين" و هى تشمع فتلتها:

- أرهقتنى هذه النزهة جدًا. لا أشعر بذراعى، أنا لست فى السادسة عشرة مثلك.

لاحظ "هيبر" أن الصغيرة تعمل تحت ضوء الشمس فقال مشفقًا:

- قد تصيبك الشمس بالصداع.

قالت "أنجيليك" فى مرح:

- أبدًا. الشمس تنعشنى.

ثم ابتسمت و هى تتذكر الحقول المترامية فى ضيعة "هوت كير". كان يومًا رائعًا فى الهواء الطلق. كان الغداء شهيًا فى الصالة التى تبعد عن القلعة بنحو خمسين مترًا. من هذه الصالة يبدو البرج الرئيسى شامخًا، يصل ارتفاعه إلى ستين مترًا. من خلال الأسوار لمحت بعض مبانى القصر، الكنيسة الخاصة، قاعة الحكم، بعض الحجرات الأنيقة. لا يستطيع تشييد مثل هذه القلعة إلا مهندس عبقرى و عمال جبارين. يبدو أن مخازن المؤنة تكفى لتخزين غذاءً كافيًا لخمسمائة رجل لمدة ثلاثين شهرًا. أزهار النسرين و الليليك تنمو بين الأحجار فتنتشر الروائح العطرة فى المكان. انبهرت الصغيرة بهذه الضيعة الرهيبة فسألت و هى مازالت تعمل على النول:

- أنا واثقة أن هناك أناس يعيشون بداخل هذا القصر. سمعت أصواتهم، أليس كذلك؟ أنتما تعرفان جيدًا قصة هذا القصر.

قالت "هيبرتين" و هى تبتسم فى هدوء:
- تقصدين أشباحًا، أنا لم أر شيئًا.
ألحت "أنجيليك" فى السؤال عن أصل هذا القصر، و فى النهاية اضطرت "هيبرتين" إلى أن تروى لها القصة كما قرأتها من قبل فى كتاب قديم.
فى القرن العاشر، حاصرت قبائل "النورمندى" المنطقة طمعًا فى احتكار تجارة الخيوط الرائجة. و لذلك أقام السيد "سيفيران" القلعة من أجل الحماية. لكنه فى النهاية اضطر إلى أن يهبها إلى "نوربار" زعيم قبائل النورمندى بشرط أن تظل "بومون" و كنيستها تحت الحكم الفرنسى. بذلك أصبح "نوربار" هو سيد المنطقة. أشاعت قبائل النورمندى الفوضى، قطعوا الطرق على قوافل التجارة، نهبوا البيوت الآمنة، و فى النهاية حوكم زعماؤهم بالصلب على أبواب الكنيسة . و انسحبت قبائل النورمندى بعد ذلك بسبب نقص المال و ضعف هيبتهم. و فى عام 1225، أعاد "جون الخامس" بناء القلعة و أقام قصرًا جوارها ليسكن فيه. استغرق بناء هذا القصر خمس سنوات تقريبًا. كان "جون الخامس" يحلم بمُلك فرنسا، خاض أكثر من عشرين حربًا، و فى النهاية توفى في فراشه. بعد وفاته رحل أحد ولديه إلى القدس سيرًا على الأقدام بينما أصر الابن الثانى على بسط نفوذه و سطوته على المنطقة فراح يدعم أسوار القلعة و يزيد الحصون قوة و صلابة.
استمتعت "أنجيليك" إلى الأسطورة و فى عينيها الدهشة و على شفتيها ابتسامة حالمة. شعرت بنفسها بين النبلاء و الأمراء حتى أنها اشتمت رائحة الدماء و رائحة ورود النصر، ثم سألت:
- هل المطران الجديد، السيد "هوت كير" ينتمى إلى هذه الأسرة؟

- بالتأكيد، لكن ثروته تتضاءل منذ ظهور مصانع صغيرة لتصنيع الخيوط. و بالرغم من ذلك مازال يتمتع بنفوذ دينى و مركز أدبى مرموق.

سألت "أنجيليك":

- السيد "هوت كير" متزوج. أليس لديه ابن فى العشرين من العمر؟

أجابت "هيبرتين" و هى تقص أحد الأشرطة:

- نعم، أخبرنى الكاهن "كورونيل" بذلك. إنها قصة مأسوية. كان السيد يعمل قبطانًا و هو فى الحادية و العشرين. ثم استقال من هذا العمل بعد ثلاث سنوات فقط. عاش بعد ذلك حياة صاخبة ماجنة، رحلات و مغامرات بكل أنواعها. و عندما أصبح فى الأربعين من العمر التقى "بول" فى دار أحد أصدقائه. كانت "بول" جميلة جدًا، ثرية جدًا، تصغره بتسعة عشر عامًا، هام بها عشقًا، أحبها لدرجة الجنون و أصر على الزواج بها. و من أجلها أنفق الكثير فى ترميم القصر و القلعة و الحدائق. و بعد تسعة أشهر فقط وضعت "بول" ابنها ثم ماتت فى الحال.

هتفت "أنجيليك" فى آسى:

- مسكين.

أكملت "هيبرتين":

- عوضه الله عن وفاة زوجته و أصبح مطرانًا الآن. يقولون أنه كره ابنه لاعتقاده أنه سبب الوفاة فأرسله إلى أحد أقاربه، لكن الكاهن "كورونيل" أخبرنى بالأمس أن السيد طلب حضور ابنه ليعيش بجواره.

ألقت "أنجيليك" نظرة حالمة إلى النافذة و هى تقول:

- ابن السيد!

أكملت "هيبرتين":

- يقولون أنه رائع الحسن مثل آلهة الإغريق. والده يرغب فى أن يجعله قسًا، لكن الكاهن يرفض ذلك متعللًا بعدم

وجود أى مشاعر دينية لدى الشاب الصغير، ربما تكون الثروة الرهيبة التى ورثها عن والدته أضعفت الواعز الدينى.

هتفت " أنجيليك" و على شفتيها ابتسامة الدهشة:

- ثرى مثل أمير، جميل مثل إله إغريقى. يا له من حلم رائع.

انهمك الجميع فى العمل، غرق المشغل فى صمت مهيب لا يخترقه إلا غناء الكورال الهادئ فى الكاتدرائية. ثم قال "هيبر" متأففًا:

- فى هذه العصور الغابرة كان الرهبان لا يرتدون إلا ثيابًا مزخرفة فى غاية الأناقة و الفخامة. كانوا يدفعون أسعارًا باهظة.

ضرب بيده على النول لتنظيفه ثم قال:

- والدتى قالت لى أن الوباء أصاب البلدة عندما كنت صغيرًا. شعر السيد "هوت كير" أن العناية الإلهية تفرض عليه محاربة المرض. و بدأ فى زيارة المرضى، يلمسهم و يطلب من الله الشفاء فيشفى المريض على الفور.

قالت "أنجيليك" و هى تنهمك فى عملها:

- ما أحلم به هو أن أتزوج أمير. فى غاية الثراء و غاية الجمال. أعيش معه فى قصر ضخم حيث تصهل الخيول تحت نافذتى، تتساقط المجوهرات من بين يدى. لكن قبل كل ذلك يجب أن يحبنى لدرجة الجنون و أنا أيضًا سأحبه لدرجة الجنون. نعيش معًا حياة هانئة سعيدة طاهرة.

قالت "هيبرتين" و هى تضربها فى كتفها:

- ما كل هذا الغرور، أنت شيطانة.

ضحكت "أنجيليك" قائلة:

- أمى، ليس ذنبى أننى أحب الجمال و المال. كما أن رغبتى فى المال ليست عن طمع أو جشع، سأنفق المال فى خدمة

الفقراء و المساكين، سأنفق المال عليكما، أريد معاونتكما لتنعما بحياتكما.

قالت "هيبرتين" فى آسى:

- أنت مجنونة يا بنيتى، أنت فقيرة لا تملكين مليمًا واحدًا لزواجك فكيف تحلمين بأمير.

قالت "أنجيليك" بفخر:

- سيمنحنى كل ما لديه من المال لأننى سأمنحه كل ما لدى من حب.

قال "هيبر" مازحًا:

- أنت محقة يا بنيتى، أنت صغيرة و جميلة.

اندفعت "هيبرتين" بحزم:

- مازالت صغيرة و لا تعلمين شيئًا عن الحياة.

- أعلم الحياة جيدًا.

- مازلت صغيرة و تجهلين أن هناك أشرار.

رددت "أنجيليك":

- الشر.. الشر..

فى هذه اللحظة تذكرت ما قرأته فى الأساطير. الشر لا يحدث إلا من الشياطين. فى كل الأساطير ينتصر الخير و تنهزم الشياطين، فقالت فى تحد:

- سأهزم الشر.

قالت "هيبرتين" فى قلق:

- أنت لا تخرجين من الدار إلا نادرًا، الحياة فى الخارج ليست جنة.

قالت "أنجيليك" فى عناد:

- لماذا كل هذا التعقيد. الحياة بسيطة. نحن سعداء هنا لأن الحب يملأ الدار. و سيأتى رجلٌ ما و يطلب الزواج منى ببساطة، سأذهب معه لأعيش فى قصره و أنام على فراش مرصع بالمجوهرات.

- أنت مجنونة.
قال "هيبر" في هدوء دون أن يرفع عينيه عن النول:
- لا أحد يدرى ما سيحدث غدًا.
صرخت "هيبرتين" فى غضب:
- لا تشجعها على أحلامها الخبيثة. لا تجعلها تحلم بالمستحيل.
التفت "هيبر" إلى الصغيرة قائلًا:
- أمك على حق، إنها أحكم منى و منك.
قالت "أنجيليك" فى إصرار:
- و مع ذلك أنا أنتظر أمير رائع الحسن.
برقت عينيى "هيبرتين" كأنها تذكرت شيئًا مفاجئًا ثم قالت ساخرة:
- كنت أعتقد إنك زاهدة فى الزواج. القديسات الذين تحلمين بهن لا يتزوجن.
ذُهلت "أنجيليك"، لم تجد شيئًا تقوله، فاندفعت "هيبرتين" تكمل:
- حارستك القديسة "آنييه" رفضت الزواج من ابن الحاكم طمعًا فى الزواج بالمسيح فى الآخرة.
فى هذه اللحظة دقت أجراس الكنيسة، دارت الشمس فى السماء فراحت الأدوات البسيطة تبرق كالفضة، و فى النهاية قالت "أنجيليك":
- لا أريد إلا رضى المسيح.

(4)

بالرغم من نشاطها و حيويتها إلا أن "أنجيليك" كانت تعشق العزلة. تصعد إلى حجرتها فور الانتهاء من العمل، تقضى ساعات طويلة بمفردها لتعيش فى أحلامها و خيالاتها دون أن يزعجها أحد. حتى أثناء النهار تهرب إلى حجرتها كلما سنحت لها الفرصة بذلك.

حجرتها تشغل نصف مساحة السندرة تقريبًا، الحوائط مطلية بالجير حتى السقف. لقد احتفظت "هيبرتين" بالأثاث الحديث نسبيًا فى الطابق الأرضى، بينما رفعت أثاث الأباء و الأجداد الذى يعود إلى عدة عصور مختلفة إلى هذه الحجرة. صندوق يعود إلى عصر النهضة، المنضدة و المقاعد يعودون إلى عصر "لويس الخامس عشر". الفراش فى غاية الضخامة يعود إلى عهد "لويس الرابع عشر". كل الأثاث أصبح قاتمًا داكنًا تحت تأثير الرطوبة الشديدة، فبدت الدفاية الرخامية الصغير تزهو بلونها الفاتح فى هنا المكان القاتم. بالرغم من تقشف المكان إلا أن "أنجيليك" كانت قانعة بعزلتها، و كانت تسعد كثيرًا بالشرفة.

أرضية الشرفة ما زالت كما هى منذ إنشاء الدار، لكن بعد أن تحطم السور القديم تم وضع سور جديد من الحديد. الشرفة تطل على حديقة فندق "فوانكور" من جهة اليمين و حديقة الكاتدرائية من جهة اليسار.

أرضية حديقة الكاتدرائية مرصوفة بالحجارة من مختلف المقاسات و الأشكال. فى الزاوية القريبة من الكنيسة سياج من نبات الليليك يلتف حول مقعد حجرى، و فى زاوية أخرى ينمو اللبلاب فى توحش. يتخلل الحديقة أشجار كثيرة ضخمة ذات

فروع كثيفة، بالإضافة إلى عدة أبراج تحمل أسماء القديسين و القديسات.

منذ أن سكنت "أنجيليك" هذه الحجرة من سبع سنوات لم يتغير المشهد أبدًا. يأتى بعض الفقراء من حين لآخر لغسل حاجياتهم فى المجرى المائى الذى ينبع من برج القديس "جورج الخامس". فى الصيف، يستلقى بعضهم تحت ظل الأشجار قليلًا ثم ينصرفون، بعض الفقراء و المحتاجين يلجأون للبيات هنا. نلمح "كلارا" ابنة الكونتيسة فى حديقة فندق "فوانكور". و أثناء الليل، يكون الظلام دامسًا.

بالرغم من العتمة إلا أنها لم تشعر أبدًا بالخوف، تقضى ساعات طويلة أثناء الليل و هى تستمتع برائحة الورود، ترقب أبراج القديسين و القديسات، تشعر بأرواحهم تتحرك فى المكان، يحدثونها و تحدثهم، يؤنسون وحدتها، تعيش معهم آلامهم و معجزاتهم، و تتخيل مدى السعادة التى لاقوها فى الحياة الآخرة بجوار المسيح.

و اليوم، بعد أن أتمت السادسة عشرة من عمرها، بدأت تتفتح فى نفسها مشاعر أنثوية غامضة. عندما تكون السماء صافية يأخذها القمر بسحره، تفتنها النجوم برقتها، بدأت تشعر بلغة الورود و الأشجار، بدأت تحتوى الكون بأسره فى قلبها الصغير.

أصبحت تبكى بشدة تحت ضوء القمر، لا يوجد سبب واضح لحزنها غير أنها تشتاق كثيرًا لفارس أحلامها، تترقب بلهفة أن يأتيها من هذه الشرفة، لكن طال انتظارها. الحديقة ما زالت غارقة فى الظلام، المطرانية تبدو مثل كتلة حجرية ضخمة، برج القديس "جورج الخامس" ما زال مهجورًا بنوافذه الزجاجية الملونة التى تروى معجزاته و آلامه.

فى ذات ليلة، لمحت ضوءًا خافتًا فى أحد نوافذ برج القديس "جورج". شعرت بحركة ما تحدث هناك لكنها لم تستطيع

أن تلمح أحدًا فى الظلام. فى هذه الليلة نامت قريرة العين، هادئة مطمئنة لأن روح القديس أتت لحراستها. كيف تخاف من روحه؟ أليس هو الذى شيد الكاتدرائية من ماله الخاص؟ أليس هو الذى يشفى المرضى بمجرد لمسة واحدة؟

اكتشفت فى اليوم التالى أنهم يقومون بترميم البرج. و أصبحت بعد ذلك تشعر بنفس الحركة فى نفس المكان كل ليلة. الحركة تقترب كل ليلة أكثر من الليلة السابقة، هناك عيون ما تراقبها، إلى أن شعرت بالحركة تدب تحت شرفتها مباشرة، سمعت صوت أنفاس غامضة مبهمة، و فى النهاية رأته أمامها.

تحت ضوء القمر رأته جيدًا، شاب فى العشرين من العمر، أشقر، طويل ممشوق القد، يشبه القديس "جورج الخامس" بشعره الأشعث و لحيته الخفيفة، أنفه دقيق مستقيم، يميل جسده إلى القوة دون إفراط، أسود العينين، و فى عينيه سحر غريب غامض.

حدثت المعجزة أخيرًا. هذا ما كانت تترقبه و تنتظره، هذا ما كانت تحلم به. ابتسم الشاب و هو يفتح ذراعيه عن آخرهما، فابتسمت فى دلال.

(5)

يحين موعد الغسيل كل ثلاثة أشهر. تستأجر "هيبرتين" الأم "جابير" لمدة أربعة أيام للقيام بهذا العمل. فى هذه الأيام تختفى شرائط التطريز و تضطرب حياة "أنجيليك"، لكنها تجدها فرصة رائعة للاغتسال فى المياه النقية للمجرى المائى الموجود بحديقة الكاتدرائية، حيث تقضى طوال النهار مستمتعة بالهواء الطلق و أشعة الشمس الدافئة. فى المرة الأخيرة اقترحت على الأم "جابير":

- سأقوم أنا بالغسيل اليوم، هذا يسعدنى.

ثم انحنت على المجرى المائى تغسل الملابس فى همة و نشاط، و بعد برهة قالت و هى تضحك بسعادة غامرة:

- يداى تجمدتا، هذا منعش.

كانت المياه فى البداية تنساب برفق و هدوء و هى تقطع حديقة الكاتدرائية، ثم تندفع بعد ذلك فى جنون على منحدر صخرى إلى أن تصل إلى حديقة فندق "فوانكور" عبر قنطرة صغيرة، ثم تختفى بعد ذلك تحت الأرض لتعاود الظهور على السطح على بعد مائتى متر تقريبًا. و هذا يعنى أنه لا بد من الحذر، لو جرفت المياه أى قطعة من الملابس يستحيل العثور عليها. فى هذا اليوم، اقترحت "أنجيليك" عابثة:

- سأضع حجرًا كبيرًا فى المناشف و سنرى إذا كان سيأخذها هذا المجرى اللص.

جرت تجمع الحجارة سعيدة بأفكارها المجنونة، و بعد أن قامت بتجربتها اعترفت بالفشل، فعادت تنهمك فى الغسيل على سجيتها، فالحديقة تكون خالية تمامًا أثناء النهار لأن الفقراء و المساكين الذين يبيتون تحت الأشجار انصرفوا إلى الشوارع

يتسولون. فراحت "أنجيليك" تستمتع وحدها بالهدوء و الصفاء، و فجأة تذكرت شيئًا مهمًا فقالت فى لهفة:

- لا تنس وعدك لى، ستصنعين لى الليلة فطيرة بالفراولة.

لكن اليوم، كان على "أنجيليك" أن تقوم بعملية الغسيل بمفردها. الأم "جابيير" تعانى من آلام عرق النسا، بينما ظلت "هيبرتين" فى الدار لتقوم بأعمال أخرى. وضعت الصغيرة الملابس فى السلة ثم انطلقت إلى الحديقة تغسل الثياب قطعة وراء قطعة، تنهمك فى رجها كثيرًا فيتطاير الماء فى شكل حبات كريستالية صغيرة. لم تشعر أبدًا بالتعب و لا الإرهاق، إلا أنها شعرت بالقلق منذ الصباح، لقد لمحت عاملًا عجوزًا يرتدى قميصًا رماديًا واقفًا على صقالة صغيرة أمام نافذة برج "جورج الخامس".

تساءلت فى نفسها: هل يقومون بالترميم؟ من المؤكد أن النافذة تحتاج إلى الترميم، لقد تحطمت قطعًا كثيرة من الزجاج المزخرف الرائع على مدار عدة قرون، و تم استبدالها بقطع من زجاج بسيط عديم اللون حتى أصبحت النافذة مشوهة. لكنها تعشق النافذة بهذه الحالة التى ألفتها، يجب الاحتفاظ بالمكان كله كما هو إحتراما لقدسية القديسين و القديسات. و لكن كيف يكون لها رأى فى مثل هذه الأمور الخطيرة؟

عندما عادت إلى الحديقة بعد الغداء ألقت نظرة خاطفة على النافذة فرأت عاملًا آخر يرتدى قميصًا رماديًا أيضًا، لكنه صغير السن، بمجرد أن لمحته عرفته، إنه هو.

غمرتها السعادة، اتجهت إلى نفس مكانها دون تردد. انهمكت فى الغسيل و التجفيف و هى تلقى إليه نظرات خاطفة إلى أن تأكدت أنه هو نفس الشاب الذى لمحته تحت ضوء القمر، طويل، رفيع، أشقر، له لحية خفيفة و شعر مجعد و بشرة ناصعة البياض. أدركت الآن أن هذه النافذة ستتحول إلى تحفة فنية رائعة.

لم تنفر من ثيابه، إنه عامل مثلها، رغم أن هذا يتناقض تمامًا مع أحلامها بالثروة الطائلة و النفوذ الممتد. لا شك أن هذا الشاب سيتقدم للزواج بها عما قريب. لم تحاول أن تشغل بالها بعنوانه، لا شك أنه يسكن بالقرب من هنا.

رغم أنه يحاول أن يبدو منهمكًا فى عمله إلا أنها شعرت بنظراته الخاطفة المتلصصة. اعتمل فى نفسها مكر الأنثى، فاجأته بنظرة ثاقبة فاستشاط وجهه بحمرة الخجل. أيقنت من مدى رهافة حسه، أى انفعال بالغضب أو الحب يبدوا واضحًا فى وجهه. رغم أن نظراته مثل نظرات فارس محارب نبيل إلا أنه خجل كثيرًا عندما شعر بها تختبره بنظراتها من بعيد، ثم بدا مثل طفل صغير و هو يطيع أوامر العامل العجوز الذى ظهر إلى جواره. اعتقدت الصغيرة أنه برئ مثلها، يجهل الحياة رغم حبه الشديد للحياة بكل ما فيها من متع و ملذات، و لا يوجد فى الدنيا ما هو أمتع من نظرات متبادلة تحمل رسائل كثيرة دون أى كلمات.

لمحته و هو يقفز من على الصقالة، اختفى بين الأعشاب الكثيفة كأنه سيتجه إلى الحقول، ثم التفت عائدًا و هو يوليها ظهره. كادت أن تنفجر من الضحك لكنها كبحت جماح نفسها، كان واضحًا أنه يريد الاقتراب منها ليتأمل جمالها عن قرب. يبدو من حركاته الحذرة المترقبة كأنه رجل يغامر بكل ما لديه من أجلها. إعتقدت أنه سينصرف عائدًا إلى الصقالة بعد قليل، لكنه التفت فجأة، و التفتت هى إليه فى نفس اللحظة. التقت نظراتهما، نفذ كل منهما إلى عمق الأخر دون كلمات، تجمد كل منهما فى مكانه تائهًا حائرًا، فجأة هتفت:

- يا ربى.. يالها من كارثة.

لقد ارتجفت يدها فجرف التيار قميص النوم الذى كانت تغسله. مرت لحظة صمت سريعة ثم حاول الفتى انتشال القميص و هو يمد ذراعه عن آخرها، فشل، و بدأ القميص يتجه

إلى القنطرة، فقفز فى المياه الجارية بعنف، انتشل القميص و عاد به إليها.

وقفت فى مكانها ترقبه و هو يتقدم نحوها حاملًا القميص و فى عينيها نظرات ذاهلة. كثيرًا ما كانت تحلم بمثل هذا اللقاء الخاطف العاصف و مغامرة جريئة على شاطئ بحيرة. الحلم يتحقق، و هو رائع الحسن، أكثر جمالًا من القديس "جورج الخامس" الذى كانت تراه فى أحلامها. عضدت على شفتيها حتى تمنع ضحكاتها من الانفجار، بينما راح هو يتقدم نحوها ذاهلًا مضطربًا.

أدرك من ملابسها و هيئتها أنها تعمل خادمة فى أحد الديار، و لكن سحرها و جمالها الفاتن، براءتها و سذاجتها، ضحكتها المكتومة، كل شىء يدل على أنها أميرة ساحرة فاتنة أتت من عالم الأساطير الغامض المبهم. وقف برهة حائرًا ثم أعاد إليها القميص. حاولت أن تقول أى شىء لتشجعه على الحديث، شكرته ثم انفجرت فى الضحك. ظهر فى عينيه بريق خاطف، استشاط وجهه بحمرة الخجل، لم يقل أى شىء اختفى مع العامل العجوز فى الحديقة بينما عادت هى إلى الغسيل بنفس راضية و قلب مفعم بالأمل.

فى اليوم الثانى، أصبحت الرياح شديدة. هذا مناسب جدًا لتجفيف الغسيل سريعًا، اضطرت "أنجيليك" لتثبيت كل قطع الغسيل بالحجارة من الأربع جهات. بعد الغداء أصبحت الرياح أشد عنفًا، طارت المناشف و اشتبكت بفروع الأشجار، جرت تلملمها، التف غطاء الفراش حولها و هى تحاول تثبيته، و هى محاطة بالغطاء سمعت من يقول:

- آنستى، هل أساعدك؟

هتفت فى جزع:

- بالتأكيد، إمسك بطرف الغطاء، بقوة من فضلك.

تعاون الإثنان معًا فى فرش الغطاء على الأرض، ثم جلس كل منهما يفصل بينهما الفراش ناصع البياض، ضحكت و فى عينيها نظرات الشكر، فقال:

- اسمى "فيليشيا".

- و أنا " أنجيليك" .

- مهنتى الرسم على الزجاج، طلبوا منى إصلاح هذه النافذة.

- أعيش هنا مع والدى، مهنتى التطريز.

بحثت فى ذهنها عن أى شيء تقوله لتقترب منه فقالت:

- كنت أحب النافذة على حالها القديم، لماذا التجديد؟

اندفع قائلًا:

- إننى أقوم بإصلاحها فقط ، لن تلاحظى أى اختلاف بعد الإصلاح.

- أعشق هذه النافذة جدًا. حاولت تقليدها فى التطريز، لكن التطريز لم يكن رائعًا مثل النافذة.

اندفع مبهورًا:

- لم يكن رائعًا؟! لو تقصدين الثوب الأحمر الذى كان يرتديه الكاهن "كورونيل" يوم الأحد الماضى، فتطريزك رائع جدًا.

اشتعل وجهها بحمرة الخجل ثم صرخت فجأة:

- ضع قطعة حجر عن يسارك، الهواء سيخطف الغطاء.

قام بتثبيت الغطاء جيدًا، و بعد أن اطمأنت عليه راحت تتجول فى طرقات الحديقة لتطمئن على بقية الملابس، بينما هو يسير بجوارها و هو يشعر بقلبه يرفرف مثل طائر أسير يبحث عن الحرية. و فى هذه الجولة قالت:

- أحب النظام. أستيقظ كل يوم على دقات الساعة الموجودة فى المشغل فى السادسة صباحًا. رغم أن ضوء الشمس لا يكون كافيًا لكنى أبدل ثيابى بسهولة طالما أن الصابونة فى

مكانها و حذائى فى مكانه. لم أولد مثل هؤلاء الغوغاء، والدتى تعبت كثيرًا فى تربيتى. فى المشغل لا أستطيع العمل إن لم يكن مقعدى فى نفس المكان بجوار النافذة المطلة على الحديقة. من حسن الحظ أننى أعمل بكلتا يداى، هذا يساعدنى كثيرًا فى العمل. أحب جدًا رائحة البنفسج ، عندما أكون متوترة يكفى أن أشم رائحة البنفسج حتى أعود إلى طبيعتى.

كان " فيليشيا" يسير جوارها مسحورًا، صوتها ينسكب فى أذنيه لحنًا رائعًا، و فجأة قطعت حديثها قائلة:

- الملابس جفت تمامًا.

ثم انهمكت فى لملمة الملابس و هى تقول:

- أحب اللون الأبيض كثيرًا. لدى ملابس زرقاء و حمراء و من كل الألوان، لكنى لا أستطيع الاستغناء عن اللون الأبيض، يجذبنى بشدة، يريح أعصابى. لدى قطة فى المنزل بيضاء مبقعة ببقع صفراء، صبغت البقع الصفراء بالأبيض، لكن الصبغة لا تستمر كثيرًا. سأخبرك بسر لا يعلمه أحد حتى أمى، إننى أحتفظ بقطع صغيرة من الحرير الأبيض فى صندوق صغير، لا أبغى شيئًا من هذا الحرير سوى الاستمتاع بلونه و ملمسه.

لم يشك فى صدق كل كلمة قالتها، سحرته بجمالها و براءتها، أصبح لا يريد شيئًا من هذه الدنيا سوى أن يظل بجوارها إلى الأبد.

اشتدت الرياح، تطايرت الملابس فى الهواء، فراحت تجرى و هى تقول:

- هيا، ساعدنى.

جرى الإثنان يلملمان الملابس المتطايرة من على الأشجار. التمس الجسدان بعفوية، ارتجف الإثنان. تطاير فستانها فراح قلبه يرجف فى نشوة. قبض على يدها و هو يناولها قطع الثياب، اختفت ضحكاتهما، ارتبكا، ثم حملت سلة الثياب و راحت تجرى إلى دارها بينما " فيليشيا" يرجوها:

- انتظرى، لحظة من فضلك.
لم تلتفت إليه إلا بعد أن دخلت دارها ثم قالت:
- شكرًا. شكرًا.
بقى وحده فى الحديقة لا يعلم إن كانت تشكره على معاونتها أم على شىء آخر. شعر بحركة ما حوله، التفت ليكتشف غطاء شعرها الأبيض معلقًا بفرع شجرة الليليك.
منذ هذا اليوم أصبحت "أنجيليك" تجده فى الحديقة كلما فتحت شرفتها، أحيانًا تجده منهمكًا فى العمل فوق الصقالة، أحيانًا فى الحديقة. اندهشت عندما رأته ذات يوم على سطح الكنيسة. الكاهن لا يسمح لأحد أبدًا بالصعود إلى هذا السطح. و راحت تتساءل فى ذهول و إبهار كيف استطاع الوصول إلى هذا المكان ليكشف حجرتها تمامًا؟
كانت سعيدة قانعة بالابتسامات الخاطفة. لا تعلم عنه سوى اسمه فقط، رغم أنه علم منها كل شىء يخصها. هكذا يفعل الرجال دائمًا، يتركون المرأة تثرثر و تبوح بكل أسرارها و لا يقول أحدهم كلمة واحدة عن نفسه. على كل حال، فأنها لا تريد أن تعلم عنه شيئًا. يكفى ابتسامة فى الصباح و أخرى فى المساء. لكن، "فيليشيا" لم يكن صابرًا قانعًا مثلها، نفذ صبره، و فى ذات يوم اقترب كثيرًا من شرفتها و أصبح على وشك أن يقفز إليها، فأغلقت الشرفة بعنف و اختفت.
منذ ذلك اليوم منعت نفسها من الجلوس فى الشرفة، بل أغلقتها تمامًا. لكنها فقدت القدرة على التركيز. أصبحت تتحرك كثيرًا فى المشغل دون أن تفعل شيئًا، تضيق بالمشغل فتنطلق إلى الصالون، تضيق بالصالون فتصعد إلى حجرتها، ثم تضيق بحجرتها فتعود إلى المشغل دون أن تفعل شيئًا. أصبح القلق بداخلها متوحشًا، و صارت الدار فى عينيها ضيقة.
مرت ثلاثة أيام دون أن يرى أحدهما الآخر. فى هذه الأيام كانت تخرج كل صباح لزيارة الأم "جابير"، تأتى لها

بالخبز و السكر، تذهب إلى الصيدلية لتشترى لها الدواء. و فى اليوم الثالث رأت "فيليشيا" بجوار فراش الأم "جابير". عندما رآها استشاط وجهه بحمرة الخجل ثم انصرف في أدب جم.

فى اليوم التالى، و هى على وشك الانصراف من زيارة الأم "جابير" التقت به قادمًا لمساعدة العجوز، فانصرفت و هى حانقة.

فى هذه الفترة أصبحت شديدة الحساسية، أصبحت تشعر كثيرًا بالفقراء و المساكين، تجزع من أجلهم، يعتصر قلبها ألما لمعاناتهم، تتمنى فعل أى شىء لتخفف عنهم. ذهبت إلى الأب "ماسكار". ذهبت إلى الأب "شاتو" الذى أصابه العمى بعد أن تجاوز التسعين من العمر لتعاونه على تناول الطعام بيدها. و عند زيارة كل فقير أو محتاج تجد "فيليشيا" أمامها كأنه ينافسها فى الأعمال الخيرية. و فى ذات يوم رأت على المنضدة التى بجوار الأب " شاتو" مبلغًا كبيرًا من المال. شعرت بالضيق، و ربما الغيرة لأن هناك من يتفوق عليها فى حب الخير.

بحثت عن فقراء جدد. ذهبت إلى أسرة "لامبالوز". الأسرة تتكون من أرملة عجوز و ثلاث فتيات. الأسرة كلها تخرج للتسول طوال النهار و يعودون منهمكين أول الليل. أصبحت تذهب إليهم بالخبز كل أسبوع.

و فى ذات يوم لاحظت أن الأسرة الفقيرة فى حالة قلق، سألت عن السبب فقالت الأم ثائرة:

- أضاعت ابنتى الكبرى حذاءها، لن تستطيع الخروج للعمل غدًا.

بكى الفتيات الثلاث ثم أكملت الأم:

- لا نملك ما يكفى لشراء الحذاء.

لم تجد "أنجيليك" شيئًا تقوله، أخرجت من حقيبتها الخبز فقالت الأم فى غضب:

- دائمًا خبز و لا شيء غير الخبز. نحتاج إليه بالتأكيد و لكن لن تستطيع ابنتى السير بالخبز.

خجلت "أنجيليك" لأنه لم يكن معها ثمن الحذاء، و هنا ظهر "فيليشيا" الذى كان يستمع إلى حوارهم من مكان خفى. انتاب "أنجيليك" الغضب، لا شك أنه سيحل المشكلة ببساطة. دائماً ما يقهرها هذا الشاب، لا تستطيع التفوق عليه أبدًا، فاندفعت قائلة:

- المشكلة بسيطة، الحل سهل.

ثم صمتت فى حيرة، الحل ليس سهلًا، فقال "فيليشيا":

- إذهبى إلى المتجر الذى فى نهاية الشارع...

اندفعت "أنجيليك" مرة أخرى:

- المشكلة ليست معقدة إلى هذا الحد.

ثم صمتت دون أن تقدم حلًا، أكمل "فيليشيا":

- أخبريه أنك من طرفى و سيقوم بعمل اللازم.

اندفعت "أنجيليك" قائلة:

- لماذا كل هذا التعقيد؟

ثم جلست تخلع حذائها و قدمته للفقيرة. شكرتها الأم كثيرًا بينما شعرت هى ببرودة الأرض تحت قدميها. داهمها الخجل عندما اكتشف نفسها حافية القدمين أمامه.

في طريق العودة فضلت السير بجوار المجرى المائى حتى لا يراها أحد، لكنها فوجئت به يقطع طريقها، حاولت أن تنهره فقال مرتجفاً:

- أحبك.

زال كل غضبها فجأة، شعرت بالكلمة تنساب فى أذنيها لحنًا رائعًا. رقص قلبها طربًا بينما المجرى المائى ينساب فى يسر و سهولة.

(6)

داهم "أنجيليك" الشعور بالندم و الذنب. أصبحت تبكى بشدة بمجرد أن تنفرد بنفسها فى حجرتها. تتساءل: هل نجح الشيطان فى غوايتها مثلما فعل مع النساء الشريرات فى الأساطير القديمة؟... و بالرغم من ذلك فإن كلمة "أحبك" تتردد فى أذنيها، تنسكب لحنًا رائعًا خالدًا. تشعر بقدرات جبارة انفجرت فى داخلها، و لا تعرف متى و أين نمت هذه القدرات الخارقة.

أصبحت تشك فى طهارتها و نقائها، هل أذنبت مع هذا الشاب. ما هو تعريف كلمة "ذنب"؟ هل رؤيته بالمصادفة ذنب؟ هل عدم مصارحة أهلها ذنب؟ لم يحدث بينهما أى شىء يخدش الحياء، فتؤكد لنفسها أنها ليست مذنبة. و لكن ما هذه المشاعر المتناقضة المتضاربة؟... أشياء كثيرة تحسها و لا تستطيع تحديد اسمًا لها.

فكرت فى التحدث مع "هيبرتين". من المؤكد أنها قادرة على حل هذا اللغز الغامض المبهم. تشعر أن الطمأنينة ستعود إليها بمجرد أن تتحدث مع أى إنسان. و لكن الخجل يهاجمها بضراوة. مجرد أن تفكر فى الحديث تفور الدماء و يحتقن وجهها بحمرة الخجل.

أصبحت تعمل فى المشغل صامتة شاردة. يداها تتحركان بتلقائية كأنها ماكينة صماء ميتة. و عندما يسألها أحد والديها عما يشغلها تجيب فى هدوء: لا شىء. ثم تعود إلى عملها فى هدوء. بالرغم من كل هذا الاضطراب إلا أن السعادة تغمرها لأنها أصبحت محبوبة. و تساءلت فى نفسها: هل هى أيضًا تحبه؟

على كل حال، لقد قررت عدم رؤيته أبدًا بعد الآن. حتى لو كانت تحبه لن تراه خوفًا من السقوط فى بحر الرذيلة. لقد علمتها الأساطير مكر الشياطين و خبثهم. قررت عدم زيارة الفقراء حتى لا تلتقى به. أغلقت الشرفة تمامًا، و مع ذلك حاولت

مرة أن تلقى نظرة خاطفة عليه و لم تجده. حزنت كثيرًا رغم أنها تعلم جيدًا استحالة وجوده فى مثل هذا الوقت.

و فى ذات صباح، بينما كان "هيبر" ينهمك فى تشطيب حُلة القداس سمع طرقًا بالباب. من المؤكد أنه عميل لأن "هيبرتين" و "أنجيليك" لم يستمعا إلى صوت إغلاق الباب. و بعد قليل كانت هناك خطوات تصعد إلى المشغل. انتبهتا فى قلق، ليس من عادة "هيبر" استقبال العملاء فى المشغل. تحجرت "أنجيليك" فى مكانها و هى ترى أمامها "فيليشيا". كان يرتدى معطفًا مثل ذلك المعطف الذى يرتديه الرسامين، يداه ملطختان بالألوان. لقد قرر أن يأتى إليها بعد ان استبد به القلق و أصبح متشككًا فى حبها له. قال "هيبر":

- هذا الشاب يطلب منا عملًا ضخمًا، و لذلك فضلت الجلوس هنا للنقاش بهدوء.

ثم التفت إلى "أنجيليك " قائلًا:

- هذه ابنتى، هى التى ستقوم بالعمل و يجب أن تعرض الرسومات عليها.

لم يشك "هيبر" و زوجته فى أى شىء. اقتربا لمعاينة الرسم بينما كان "فيليشيا" و "أنجيليك" فى غاية الاضطراب. فرش "فيليشيا" لوحته ثم قال بهدوء شديد ليخفى قلقه:

- نريد تطريز هذا الرسم على حُلة خاصة بالسيد "هوت كير". اتفق بعض نساء البلدة على إهدائها له. طلبن منى القيام بالرسم و الإشراف على التنفيذ. مهنتى الرسم على الزجاج لكنى أهتم بالفنون القديمة، و لذلك فضلت لوحة قديمة تعود إلى العصر القوطى.

ألقت "أنجيليك" نظرة خاطفة ثم قالت مبهورة:

- آه، القديسة "آنييه".

كانت اللوحة مقتبسة من نقش قديم على أحد جدران الكاتدرائية. النحت الأصلى باهت الألوان بعد مرور الزمن، لكن

اللوحة المعروضة أمامهم مذهبة ناصعة. المفترض أن يُطرز فى صدر الحلة القديسة و هى تصعد إلى السماء بمساعدة ملاكين، بينما يبدو من بعيد فلاح بسيط مذهولًا بالمعجزة الإلهية. كما أن هناك نقوشًا كثيرة رائعة يجب أن تتم فى الظهر و على الأكمام، و بعد أن لاحظ "فيليشيا" إعجاب "أنجيليك" قال:

- النساء يردن تقديمها فى موكب المعجزات، أعتقد أن هذه اللوحة مناسبة.

قاطعه "هيبر" قائلًا:

- فكرة رائعة.

أكملت "هيبرتين":

- لا شك أنها ستنال إعجابه.

موكب المعجزات يحدث يوم 28 يوليو من كل عام. فى مثل هذا اليوم استطاع القديس "جورج الخامس" إنقاذ البلدة من الوباء. فى مثل هذا اليوم من كل عام يخرجون تمثال العذراء من الكاتدرائية و يتجولون به فى الطرقات ليطلبوا منها الحماية من كل شر. همهمت "أنجيليك" قائلة:

- موكب المعجزات بعد عشرين يومًا فقط. مستحيل إنجاز هذا العمل فى هذه المدة القصيرة.

شعر "هيبر" بالحسرة، الصغيرة محقة فى قولها، لكن اندفعت "هيبرتين" قائلة:

- سأساعدك، سأقوم بتطريز الظهر و الأكمام و أنت تطرزين الصدر فقط.

راحت "أنجيليك" تتأمل اللوحة و هى تصر على الرفض. تتمنى فى داخلها أن تقوم بهذا العمل لكنها تشعر أنها بذلك ستصبح شريكة له فى أعماله الخبيثة. تعلم جيدًا أنه كذاب، لم يبتكر هذه المسرحية إلا لمجرد الاقتراب منها. فى هذه اللحظة بدأت تشك فى فقره، يبدو كأنه يتنكر فى هذه الصورة البسيطة

لمراقبتها عن قرب. اعتملت بداخلها شكوك كثيرة فى كل شىء فقالت بصوت منخفض:

- مستحيل.

ثم أكملت و هى تتأمل الرسم:

- بالنسبة للقديسة لا نستطيع استخدام الألوان الداكنة، و لا نستطيع استخدام الإبرة الكبيرة. يجب أن يكون التطريز بخيوط مذهبة متدرجة الألوان.

قال "فيليشيا" مؤكدًا:

- هذا ما كنت أفكر به. أعتقد أن الآنسة وصلت إلى سر اللوحة. إنها فى غاية العمق و الرهافة.

قال "هيبر" متأثرًا:

- نعم، نعم هذه اللوحة تعود إلى القرن الخامس عشر. إحدى جداتى القدامى قامت بنحتها من الذهب المتدرج الألوان. لم يستطيع أحد تقليدها أو التفوق عليها رغم مرور مائتى عام. ابنتى محقة فى الرفض، إنها لوحة مكلفة جدًا، و لن يستطيع أحد القيام بها سوى ابنتى.

بدأت "هيبرتين" تهتم بالحديث منذ أن سمعت كلمة "ذهب" فقالت:

- مستحيل إنجاز مثل هذا العمل خلال عشرين يومًا فقط.

لاحظت "أنجيليك" أن وجه القديسة الذى فى اللوحة يشبهها إلى حد كبير. هذا يعنى أنه كان يفكر بها و هو يرسم. ابتسمت. التفتت إليه فرأته مضطربًا و فى عينيه نظرات التوسل و الرجاء. يبدو أنها استطاعت قهره أخيرًا، و هذا يثلج صدرها، فقالت فى خبث و هى تعيد إليه اللوحة:

- لا أستطيع القيام بهذا العمل لأى إنسان مهما كان.

أدرك "فيليشيا" أنها لا ترفض اللوحة بل ترفضه هو، لكنه مع ذلك التفت إلى "هيبر" قائلًا فى يأس:

- بالنسبة للمال، هؤلاء النساء على استعداد لدفع أى مبلغ، إنهن يعرضن ألفى فرنك.

ارتبك "هيبر" و زوجته عند سماعهما الرقم. أرادت "أنجيليك" أن تسخر منه مثلما يسخر هو منها، ابتسمت فى خبث لتجعله يشك فى طمعها رغم أنها لا تهتم أبدًا بالمال، ثم قالت لتؤكد له شكه:

- ألفين فرنك! يجب أن أوافق طبعًا، سأعمل طوال النهار و الليل.

ثم أكمل "هيبر" مبتسمًا:

- لا تقلق يا سيدى. ستكون الحُلة جاهزة يوم الاحتفال بموكب المعجزات.

لم يجد " فيليشيا" أى مبرر لبقائه أكثر من ذلك. ترك اللوحة و انصرف و قلبه يخفق بعنف. أصبح الآن متأكدًا من عدم حبها له. استقبلته كأنها لا تعرفه، تعاملت معه على أنه مجرد عميل عادى، لا يهمها من هذا العميل أى شىء سوى الربح. فى هذه اللحظة قرر نسيانها إلى الأبد، و لم يستطع. فى اليوم التالى بدأ يبحث لها عن عذر. ألا يجب أن تبحث عن لقمة عيشها من خلال العمل. ما ذنبها فى ذلك؟ الفقر يجعل الإنسان عبدًا للمال. راح يرقب شرفتها دون جدوى. يرقب باب دارها لكنها لم تخرج. و فى اليوم الثالث لمحها فى الشرفة مصادفة فاكتشف أنه لا يريد أحدًا سواها. لا يهم إن كانت ثرية أم فقيرة، مادية أم عاطفية، مهما كان عقلها أو شخصيتها لا يريد غيرها. اندفع فى جنون إلى دارها، و بعد برهة رأته فى المشغل و بجواره "هيبر" يقول:

- إنه يريد أن يشرح لك أشياء لا أفهمها.

قال "فيليشيا" فى تلعثم:

- آسف آنستى، هؤلاء النساء طلبن منى متابعة العمل خطوة بخطوة إن كان هذا لا يزعجك.

خفق قلبها بقوة حتى كاد يقفز من صدرها. انفجرت الدماء فى وجهها، بذلت مجهودًا كبيرًا حتى لا يبدو عليها أى انفعال، ثم قالت فى اضطراب:

- هذا لا يزعجنى. أستطيع العمل أمام الناس و اللوحة تخصك. من حقك متابعة العمل.

لم يستطيع "فيليشيا" الجلوس إلا بعد أن لمح ابتسامة الترحيب على شفتيى "هيبرتين" التى كانت تعمل فى أحد أكمام الحُلة. بينما راح "هيبر" ينزع راية من على الحائط كان علقها لتجف منذ يومين. الجميع يعمل فى هدوء تام كأن ليس هناك شخصٌ غريبٌ بينهم.

بدأ "فيليشيا" يستكين لهذا الجو الهادئ. دقت ساعة الحائط تشير إلى الثالثة ظهرًا. بدأت الكاتدرائية تلقى بظلالها فى أحد أركان المشغل. سمع خطوات الفتيات الصغيرات و هن ذاهبات للاعتراف. ثم راح يتأمل المشغل مذهولًا. فى هذا المشغل يبدو كأن الزمن يعود إلى عدة قرون خلت. الحوائط متهالكة، الأثاث قديم، أدوات العمل بدائية. حاول أن يبحث فى عقله عن أى تعليق ليبرر وجوده، فقال:

- أعتقد يا آنستى، من الأفضل تطريز شعر القديسة بالحرير.

ابتسمت مشجعة ثم قالت فى سخرية:

- بالتأكيد سيدى.

شعر بسذاجة ملحوظته، فجلس صامتًا يرقبها. قصت وجه القديسة من اللوحة المرسومة بحرص شديد، ثم قامت بتثبيتها تحت القماش بأصابع ماهرة مدربة، و انهمكت فى التطريز بعناية فائقة. و فجأة قال "هيبر" و هو منهمك فى الراية التى يعمل بها:

- ابنتى تعمل بعناية لأنها تحب هذه القديسة جدًا. انتبهى يا صغيرتى، يجب أن تكون متطابقة تمامًا للنقش الموجود فى الكاتدرائية.

عاد الصمت يريح أعصاب الجميع. بدأت "أنجيليك" تستعد لتطريز الشعر. أعدت عشر إبر بعشرة خيوط مذهبة متدرجة الألوان من الأحمر الداكن إلى الأصفر الباهت، ثم إنهمكت فى العمل، و "فيليشيا" يرقبها بقلب حائر مضطرب، و "هيبرتين" تلقى عليه نظرة هادئة من حين لآخر.

لم يجد أى ملحوظة فى ذهنه. لا يوجد إذًا سبب لوجوده أكثر من ذلك، فهب واقفًا و هو يقول فى تلعثم:

- سأعود.. كنت قلقًا جدًا في تطريز الوجة لأنى أعلم مدى صعوبته و دقته.

التفتت "أنجيليك" إليه قائلة بفتور:

- لا داعى للقلق. عد مرة أخرى إذا كنت قلقًا.

انصرف سعيدًا بدعوتها، حائرًا من فتورها. لا شك أنها لا تحبه، و لن تحبه أبدًا فى يوم من الأيام. راح يتجول فى الشوارع وحيدًا و هو يتساءل فى نفسه: لماذا إذًا كل هذه المسرحية الساذجة؟.. و بالرغم من ذلك عاد فى اليوم التالى، و فى الأيام التالية. يبدى ملاحظات صغيرة بلهاء ليشعرهم بأهمية وجوده و متابعته. كان يشعر بسعادة بالغة فى قربه منها. يرقب يديها الصغيرتين و هى تعمل بانسجام و دقة. و فى النهاية ألفت وجوده. أصبحت تتعامل معه على أنه صديق حميم، ترفع عينيها عن النول من حين لآخر و ترميه بنظرات مفعمة بالتساؤل و الحيرة، و عندما تستشعر فى عينيه نفس الاضطراب تعود إلى فتورها و جمودها مرة أخرى.

استطاع اكتشاف وسيلة مناسبة للتقرب منها، و هى الحديث معها عن فن التطريز الذى تعشقه. فراح يحدثها عن الكنوز الفنية الرائعة التى رآها داخل الكاتدرائية أو تلك التي رأى

صورها فى الكتب القديمة. حدثها عن معطف الملك "شارلمان" الأحمر المطرز بنسر رائع يفرد جناحيه. حدثها عن معطف القديس "سيون" المطرز بوجوه قديسات كثيرات. و تطريز آخر يصف نصر المسيح فى الأرض و السماء. و تطريز يصف محاكمة السماء فى الدنيا الآخرة. انبهرت كثيرًا بحديثه و معرفته الواسعة، ثم تنهدت و هى تقول فى حسرة:

- اندثر هذا الفن الجميل. لا يستطيع أحد العمل بمثل هذا الأسلوب الرائع العميق.

و فى ذات يوم استطاع جذب إنتباهها بشدة حتى أنها تركت العمل و هامت معه فى دنيا الأساطير الغامضة و عالم الفن اللانهائى، ثم انتبهت فجأة و هى تقول فى ضيق:

- تعقدت خيوط الصوف. من فضلك لا تتحركى يا أمى.

لم تتحرك "هيبرتين" من مكانها، لكنها كانت ترقب ملاطفة الشاب لابنتها فى قلق. فى هذه الليلة أبدت قلقها لزوجها. و لكن "فيلشيا" يبدو رجلًا عاقلًا مهذبًا. لماذا إذًا الاعتراض على شىء يسعد ابنتهما. زال القلق سريعًا من نفس "هيبرتين" بعد الحديث مع زوجها، خاصة و أن هذا الشهر بالنسبة للزوجين يثير عواطفهما بشدة. فى مثل هذا الشهر فقدا ابنهما. و فى مثل هذا الشهر من كل عام تتأجج عاطفتهما جياشة عنيفة. كل منهما يبتهل إلى الله و يطلب منه الصفح، كل منهما يسعى جاهدًا لإسعاد الآخر ليكون عوضًا له عن الابن المفقود. و رغم كل هذه العواطف الجياشة لم يحاول أى منهما تقبيل الآخر أمام الناس. الجميع يشعر بهذا الحب من خلال صمتهما و هدوئهما، كل حركاتهما و نظراتهما تدل على عمق هذا الحب.

مر أسبوع و العمل مستمر. أصبح حضور "فيلشيا" اليومى أمرًا عاديًا، أصبحوا يتعاملون معه كأنه أحد أفراد الأسرة.

- الجبهة عريضة، أليس كذلك؟

- نعم، أين الحواجب؟

- هكذا أفضل، تبدو تمامًا مثل النحت الذى فى الكاتدرائية.
- ناولنى الحرير الأبيض.
- انتظرى، سأشبكه لك.

دبت فى قلب "فيليشيا" نشوة عارمة. نجح أخيرًا فى الاقتراب منها دون أن ينطق بكلمة حب واحدة. و فجأة التفتت "أنجيليك" إلى "هيبر" قائلة:

- أبى، لا نسمع صوتك.

أجاب:

- أتعاون مع والدتك.

كان "هيبر" يتعاون مع زوجته سعيدًا أيضًا. لم يبقى سوى خمسة أيام فقط على الانتهاء من العمل. الجميع يعمل فى رضا و سعادة. بقدر ما كان "فيليشيا" سعيدًا بالاقتراب بقدر ما كان قلقًا متوترًا، يحاول البحث عن حجة جديدة يعود بها بعد الانتهاء من العمل. أصبحا صديقين صميمين و لا يريد أن يخسر هذه الصداقة. راح يتساءل فى نفسه كيف ينتقل إلى المرحلة القادمة؟ و "أنجيليك" كانت سعيدة أيضًا بهذه الصداقة و تتساءل فى قلق و حيرة عن النهاية.

أثناء الليل تنام فى فراشها مضطربة. تعيد فى رأسها كل الحوار الذى يحدث بينهما أثناء النهار كلمة كلمة، تحاول البحث عن معانى الكلمات و مضمونها، تتساءل فى حيرة: هل تحبه؟ بالتأكيد تحبه، تحبه لدرجة الجنون. و ما نهاية هذا الحب؟ ما الجدوى منه؟ إنها تكذب على أمها، لم تصارحها بحقيقة مشاعرها. الخجل يقتلها عندما تفكر فى هذا الأمر. إذًا، لا حل سوى أن تحبه فى صمت. قررت العودة إلى فتورها و جمودها مرة أخرى. رغم أن هذا عذاب كبير بالنسبة لها لكنها تستحق هذا العذاب لعدم مصارحة أمها. يجب تحمل الألم حتى تصبح مثل القديسات، طاهرة نقية مثلهن، قريبة من المسيح مثلهن.

عندما انتهت من تطريز وجه القديسة هتف "فيليشيا" فى ذهول:

- يا إلهى! إنها تشبهك.

راح "هيبر" يتأمل اللوحة ثم قال في إعجاب:

- حقًا، لها نفس عينيك الجميلتين.

قالت "أنجيليك" فى غضب:

- لا تسخروا منى، أعلم أننى لست جميلة أبدًا.

ثم تركت العمل و هى تقول فى حدة:

- تعبت جدًا. لا أستطيع إتمام هذا العمل.

ارتبك "فيليشيا" ثم سأل شاحب الوجه:

- لن تكملى هذا العمل الرائع؟

أجابت فى حدة:

- عملى ليس رائعًا. الفضل يعود إلى والدتى.

- إذًا أنت لا تحبين عملك.

- أنا لا أحب شيئًا.

أخرستها "هيبرتين" بنظرة حادة، ثم التفتت إلى الشاب تعتذر له عن سوء خلق ابنتها، معللة ذلك بالإرهاق الشديد و فى الغد ستكون فى حال أفضل. ثم وعدته بأن تكون الحُلة جاهزة فى الموعد المحدد.

انصرف "فيليشيا" غاضبًا، التفت "هيبر" إلى ابنته و سألها:

- ماذا بك؟

- لا شىء، لكنى لا أريد رؤيته.

اندفعت "هيبرتين" تقول فى حدة:

- لن تريه بعد اليوم، لكن هذا لا يمنع أن تكونى مهذبة.

صعدت "أنجيليك" إلى حجرتها و راحت تبكى بكاءً شديدًا.

(7)

بعد انصراف "فيليشيا" غاضبًا و لوم "هيبرتين" على سوء خلقها، صعدت "أنجيليك" إلى حجرتها مباشرة. تمددت فى فراشها و هى تغطى جسدها كله بالغطاء حتى رأسها كأنها تريد الاختفاء من الوجود. مشاعرها المتباينة تثير أعصابها. تكافح نفسها و أهوائها حتى تصبح فى مرتبة القديسات لكن فى النهاية انهارت فى بكاء عنيف.

كانت ليلة ساخنة من ليالى شهر يوليو، تركت الشرفة مفتوحة عن آخرها. و كان الصمت فى الخارج كثيفًا. تلتمع النجوم فى السماء الصافية أما القمر لا يظهر إلا فى منتصف الليل تقريبًا. أثناء نحيبها سمعت صوت ضربات على الباب ثم سمعت "هيبرتين" تهتف:

- "أنجيليك".. حبيبتى..

لا شك أن "هيبرتين" سمعت شهقاتها و بكائها و هى بجوار زوجها فصعدت على الفور لتستطلع الأمر. سألت فى همس:

- "أنجيليك"، هل أنت مريضة؟

كتمت "أنجيليك" أنفاسها دون أن تجيب. لا شىء يريحها سوى العزلة. لا شك أن مواساة أمها أو ملاطفتها ستقتلها من الخجل. تخيلت أمها و هى تلصق أذنيها بالباب، ترتدى ثياب النوم حافية القدمين.

لم تستطع "هيبرتين" أن تسمع شيئًا. لا نفس و لا حركة. استنتجت أن ابنتها قد نامت، فلماذا توقظها؟ فاضت مشاعر الأمومة فى قلبها الحنون، تشعر جيدًا بمعاناة ابنتها. و لا شك أن النوم أفضل من أى حديث. عادت إلى حجرتها فى صمت و هدوء حتى لا تقلق أحد فى الدار الغارقة فى الظلام.

جلست "أنجيليك" فى فراشها و هى تستمع إلى صوت خطوات أمها على كل درجة من درجات السلم. استمعت إلى صوت الباب و هو يُفتح و يُغلق فى الطابق الأسفل. ثم سمعت همهمات خفيفة. لا شك أن والديها يتناقشان فى أمرها، إنهما يشعران جيدًا بآلامها و أحزانها. لم تسمع همهماتهما من قبل لأنها كانت تخلد للنوم مبكرًا. فى هذه اللحظة أشفقت كثيرًا على والديها، شعرت بآلامهما، لا شك أن العقم مرض مؤلم يجعل قلبا الزوجين الحبيبين ينزفان فى حسرة.

عادت دموعها تنهمر فى غزارة. دموع دافئة بريئة مثل قلبها الغض البرىء. سؤال واحد يطاردها. هل هى محقة فى أن تجرح " فيليشيا" هذا الجرح العميق؟ هل محقة فى طرده ليتألم و يتعذب وحده؟ تعلم جيدًا أنه يحبها و سيتألم كثيرًا بسببها. و هى أيضًا آلامها شديدة لا تطيقها. أسئلة كثيرة تقلقها، شكوك كثيرة تراودها. هل القديسة "آنييه" ستغضب منها لأنها تحب؟ هل القديسة "آنييه" ستغضب منها لو عاشت فى سعادة؟ لا تعرف. من المُفترض أنها ستتزوج فى يوم من الأيام، سيأتى العريس المُنتظر، سيتقرب منها و تقترب منه، يتعرف كل منهما على الآخر، و فى النهاية ستحبه و يحبها، ثم يأخذها لتعيش معه بعيدًا فى سعادة. هذا أمر طبيعى، فما الذى يغضب القديسة "آنييه" منها؟

لا شك أنها مُذنبة. أذنبت فى حق "فيليشيا" لأنها تتعامل معه بسخرية و مكر. أذنبت فى حقه لأنها جعلته يأخذ عنها انطباعا سيئًا. عادت الدموع تنهمر بشدة و هى تتخيل وجهه، يداه ترتجفان، عيناه زائغتان، يتألم وحيدًا. تتخيله يهيم تائهًا وحيدًا فى الشوارع يبحث عنها و هو يفكر فى إصلاح ما فسد. لماذا تسبب الألم للإنسان الذى تحبه؟ لا تبغى ذلك، بل العكس، تتمنى إسعاده و إسعاد كل من حولها.

دقات الساعة تشير إلى منتصف الليل. القمر يختفى فى الأفق خلف المطرانية، ما زالت الحجرة غارقة فى الظلام. حاولت النوم و لم تستطيع، الدموع تنهمر رغمًا عنها. تذكرت باقة البنفسج. منذ خمسة عشر يومًا تجد فى شرفتها كل مساء باقة من زهر البنفسج. لا شك أن "فيليشيا" هو الذى يلقى إليها بهذه الباقة لأنها أخبرته أن رائحة البنفسج هى الوحيدة التى تريح أعصابها، بينما بقية الورود تصيبها بالصداع. كانت تأخذ الباقة كل ليلة وتخلد للنوم فى هدوء و هى تحلم أحلامًا سعيدة. من حسن الحظ أنها ما زالت تحتفظ بهذه الأزهار، فوضعتها فوق وسادتها. استطاعت زهرة البنفسج أن تعيدها إلى هدوئها، توقفت الدموع، أغمضت عينيها و الأمل يملأها فى الغد. و غطت فى نوم عميق.

سرت رجفة خفيفة فى كل جسدها. فتحت عينيها، اندهشت، الحجرة غارقة فى ضوء شفاف صاف. من خلال الشرفة المفتوحة رأت القمر يسطع فى السماء على أشجار الحديقة الضخمة. محراب الكنيسة ناصع البياض تحت الضوء. يبدو أن انعكاس ضوء القمر على المحراب هو الذى أضاء حجرتها. دارت ببصرها حول نفسها فى ذهول. كل شىء فى مكانه، تتأمل أركان حجرتها كأنها تراها لأول مرة فى حياتها. شعرت بجسدها خفيفًا كأنها تصعد إلى السماء بمساعدة أجنحة خفية. جلست وسط الحجرة صامتة، فى عينيها نظرات تائهة، على شفتيها باقة الزهر، تنتظر.

أصبحت واثقة الآن من عودته. القمر لم يرسل أشعته الفضية إلا لكى ينير عقلها و يفتح قلبها للقائه. الحجرة الآن غارقة فى النور ليستطيع كل منهما رؤية الآخر بوضوح. بدلت ثيابها، ارتدت الثوب الأبيض البسيط الذى كانت ترتديه يوم التنزه فى ضيعة "هوت كور"، تركت شعرها ينساب على كتفها بنعومة و جلست تنتظر.

سألت نفسها: من أين سيأتى؟ لا شك سيأتى من الحديقة أثناء جلوسها فى الشرفة. مع ذلك لم تجلس فى الشرفة. تشعر فى داخلها بأنه سيخترق الجدران مثلما يحدث فى الأساطير و ظلت تنتظره داخل حجرتها.

شعرت بالقديسات العذراى حولها. أتين من كل مكان فى عالم، من الكاتدرائية، من خلف الأشجار، من السماء، من القمر، يؤنسن وحدتها. هفهف ثوبها فى حركة خفيفة و هى تشعر بالقديسة "آنييه" تجلس جوارها لتحرسها.

مر الوقت بطيئًا ساحرًا إلى أن ظهر "فيليشيا" فى الشرفة، لم تندهش كأن هذا أمرًا طبيعيًا. ثبت فى مكانه و هو يقول:

- لا تخافى، أنا " فيليشيا".

لم تخف، سألت فى هدوء:

- قفزت على الأشجار، أليس كذلك؟

- نعم.

ضحكت ثم قالت:

- كنت أنتظرك، تعالى إلى جوارى.

أصبحت واثقة الآن أن القديسات لا يمنعنها من الحب. سمعت ضحكاتهن المرحبة و هن يستقبلنه. لا شك أنها كانت حمقاء عندما اعتقدت أن القديسة "آنييه" ستغضب منها. القديسة جوارها الآن وعلى شفتيها ابتسامة صافية مضيئة بالبهجة، تحيطها بأجنحتها فى حنان بالغ، كل المعذبين في الحب يحيطون بها فى ابتهال و تضرع.

تقدم "فيليشيا" نحوها بخفة. كان من قبل يريد أن يضمها إلى صدره، يعتصرها بلا رحمة رغم صراخها. لكنه وقف أمامها هادئًا بريئًا، ضعيفًا مثل طفل صغير. من على بعد ثلاث خطوات منها ركع على ركبتيه وهو يقول:

- ليتكى تقدرين مدى عذابى و آلامى. لا يوجد ما هو أقسى من أن يعيش الإنسان بلا حب. أستطيع تحمل الفقر و الحرمان، الجوع و المرض، و لا أستطيع الحياة لحظة واحدة بدونك.

استمعت إليه صامتة مشفقة، فأكمل:

- كنت أعتقد أننى نجحت فى الوصول إلى قلبك، لكنك فى الصباح طردتينى. عدتى فجأة تتعاملين معى كأننى مجرد عميل. تعثرت على السلم. رحت أجرى فى الشوارع حتى لا يرى أحد دموعى. لم أرغب فى العودة إلى بيتى. ذهبت إلى الحقول أمشى و أمشى إلى أن هبط الظلام. لا أحد يستطيع الهرب من حبه.

أخذ نفسًا عميقًا و الألم واضحًا فى عينيه، ثم قال:

- أمضيت ساعات طويلة مستلقيًا على الأعشاب الخضراء، أشعر كأننى شجرة قد انتزعت من جذورها. لا أفكر فى شىء سواك. فكرة أنك لن تكونين لى تفقدنى عقلى، لذلك عدت إليك، سامحينى إن قلت لك أننى سأحطم كل الأبواب التى بيننا.

كانت "أنجيليك" تجلس فى الظل بينما يركع "فيليشيا" على ركبتيه تحت ضوء القمر شاحبًا معتقدًا أن قلبها فى صلابة الحجرة فأكمل مستعطفًا:

- لمحتك منذ فترة طويلة فى الشرفة، لمحتك من بعيد. فى هذا اليوم لم أر تفاصيل وجهك، لكنى تخيلتك، و عندما اقتربت منك تأكدت أن خيالى مطابقًا للواقع تمامًا. كنت أحلم بك. لم أجد فى نفسى الشجاعة للاقتراب. و علمت بعد ذلك من أنت. لا أحد يستطيع أنت يقف فى وجه المُحب. ثم التقينا مصادفة جوار المجرى المائى. أعترف أننى لم أكن مهذبًا فى هذا اليوم، أعترف أننى لم أكن مهذبًا عندما طاردتك فى منازل الفقراء. فى البداية كنت أفعل ذلك للاقتراب منك، و بعد ذلك اكتشفت السعادة فى

مساعدة المحتاجين. لا أطلب منك أن تبادلينى حبًا بحب. لا أريد إلا أن تتركينى أحبك، لا سعادة لى إلا جوارك.

صمت، فقد شجاعته و هو يشعر بأن كلامه لم يصل إلى قلبها. لم يلحظ الابتسامة التى بدأت تتسع على شفتيها. مسكين هذا الشاب الصافى المؤمن. يتعبد فى محرابها و هو يشكو آلامه. يحبها دون أمل، لا يطمع فى أى شيء. القديسات لا يرفضن أبدًا حبًا عميقًا طاهرًا كهذا. شعرت بأصابع خفيفة على شفتيها، أدركت أن القديسة "آنييه" تحثها على الكلام فقالت:

- نعم، أتذكر ذلك جيدًا. أتذكر عندما رأيت ظلالك فى الحديقة، أتذكر عندما رأيتك بوضوح تحت ضوء القمر. أتذكر ضحكتى التى انفجرت رغمًا عنى و أنت تنقذ الثياب من المجرى المائى. أتذكر يوم أن جعلتنى أجرى فى الحديقة حافية القدمين، جعلتنى أشعر ببخلى عند الفقراء و المحتاجين، أتذكر...

ارتجف صوتها و صمتت. تذكرت يوم أن قال لها: أحبك. ثم أكملت:

- كنت ماكرة معك. الجهل يجعلنا نفعل أشياء لا ندركها. الجهل يجعلنا نخشى الوقوع فى الخطأ. ثم ندمت بعد ذلك. تألمت كثيرًا لألمك. يجب أن تعلم أننى كنت أعمل من أجلك أنت و ليس من أجل المال. جعلتك تعتقد فى طمعى و جشعى لأننى كنت خائفة قلقة منك. لا أعرف شيئًا. لست طيبة دائمًا، أشعر أحيانًا بأشياء كثيرة أجهلها. هل تسامحنى؟

كان "فيليشيا" يستمع إليها مسحورًا بصوتها الذى يشبه الكرستال فى نقائه و شفافيته، ثم اقترب منها و هو يقول:

- أنت رائعة الحسن، رقيقة القلب. أنت معجزة، مجرد رؤيتك تشفى آلامى و جروحى. يجب أن تسامحينى لأننى سأكشف لك عن شخصيتى.

ارتجف عندما اكتشف أنه يجب مصارحتها بحقيقته، تردد حتى لا يفقدها، لو علمت بحقيقة أمره ستضطرب و تنظر إلى المستقبل بقلق، قال:

- كذبت على والديك.

ضحكت قائلة:

- أعلم ذلك.

- لا. لا تعلمى شيئًا. أنا لا أرسم على الزجاج إلا على سبيل الهواية فقط، يجب أن تعلمى...

وضعت يدها على فمه ثم قالت:

- لا أريد أن أعلم شيئًا. كنت أنتظرك و قد أتيت. هذا يكفى.

ارتجف من لمسة يدها، ثم أكملت:

- لا أريد أن أعلم شيئًا الآن. أنا واثقة أنك أجمل رجل، أغنى رجل، أنبل رجل. هكذا كنت أراك فى أحلامى، و أنا واثقة أن أحلامى ستتحقق، سأكون لك..

مرت لحظة صمت و كل منهما سعيدًا، كل منهما مندهشًا من الكلمات الساحرة. من أين أتت هذه الكلمات؟ من الليل الصافى، من القمر، من الأشجار الضخمة و الكاتدرائية العتيقة؟ شعرت بهمهمة صديقاتها خلفها، القديسات الطاهرات يباركن حبها. كأن الكون كله يهتف بكلمة "أحبك". كانت تضم يدها إلى صدرها تحتضن الفراغ، و هو أيضًا، ثم قالت فى نشوة:

- أحبك و تحبنى، هذه هى الحقيقة الوحيدة المؤكدة.

شعرا بيد خفية تشدهما من هذا الحلم الرائع. كان ضوء الفجر الطازج. اندهشا، كيف مرت الساعات الطويلة كأنها لحظة واحدة. بدأت النجوم تختفى الواحدة تلو الأخرى، مازال لدى كل منهما كلامًا كثيرًا يريد أن يبثه فى نفس الآخر. حثته على الانصراف لكنه قال متوسلًا:

- دقيقة واحدة من فضلك.

رفضت بشدة، بدأت تسمع صوت حركات حولها، تأكدت أن أرواح القديسات تنصرف صاعدة إلى السماء، هفهف شعرها دون أن يكون هناك أى نسمة هواء، أدركت أن القديسة "آنييه" تنصرف هى الآخرى. فقالت مرتجفة:

- أتركنى أرجوك، أنا خائفة.

اتجه إلى الشرفة و قبل أن ينصرف التفت إليها و هو ينظر إليها مليًا و هى أيضًا، ثم قال:

- أحبك.

رددت خلفه:

- أحبك.

هبط مستعينًا بفروع الأشجار كما أتى، بينما وقفت هى فى الشرفة ترقبه و فى قلبها حنين جارف.

دقت الساعة تعلن الرابعة صباحًا، سمعت صوت الباب يُفتح فى الطابق السفلى، قلقت، عادة لا يستيقظ أحد فى الدار قبل السادسة صباحًا. بعد برهة رأت "هيبرتين" تتجول فى طرقات الحديقة. اندهشت، عادة يخرج "هيبر" أولًا. كانت "هيبرتين" شاحبة الوجه، يبدو كأنها لم تنم جيدًا بالأمس.

إميل زولا.

ترجمة: حسام أبو سعدة.

(8)

استيقظت "أنجيليك" فى الثامنة صباحًا بعد نوم هادئ عميق. جرت إلى الشرفة. كانت السماء صافية، الحرارة مازالت مرتفعة. رأت "هيبر" و هو يفتح الشباك فى الطابق الأسفل، فقالت في سعادة:

- أبى، الجو جميل. أنا سعيدة جدًا. موكب المعجزات سيكون رائعًا.

بدلت ثيابها بسرعة. كان اليوم هو 28 يوليو، سيخرج موكب المعجزات ليجوب كل شوارع "بومون". الأسرة كلها تهتم بهذه المناسبة السعيدة. لا يعملون أبدًا فى هذا اليوم، يمضون فترة الصباح فى تزيين الدار. هذا التقليد تتوارثه المدينة منذ أربعمائة عام تقريبًا. ارتشفت القهوة بالحليب فى عجلة ثم سألت:

- أمى، يجب أن نتأكد إن كانوا فى حالة جيدة.

قالت "هيبرتين" بهدوء:

- مازال لدينا وقت كاف، لن نعلقهم قبل الثانية عشرة ظهرًا.

كن يتحدثن عن الثلاث ستائر العتيقة الرائعة التى تحتفظ بها الأسرة كأنها كنز ثمين يدخرونه للزمن. لا يخرجون هذه الستائر من مكانها إلا فى مثل هذا اليوم فقط.

منذ الأمس، القس "كورونيل" يطرق كل أبواب البلدة، يدعو الناس لمتابعة تمثال القديسة "آنييه" بصحبة السيد "هوت كور" الذى سيحمل تمثال القديس "ساكرمون". منذ أربعمائة عام لم يتغير أى شىء فى هذا الموكب أبدًا. يخرجون من بوابة القديسة "آنييه"، يجوبون الشوارع و الميادين بنفس النظام و الترتيب، ثم يعودون إلى الكاتدرائية من خلال البوابة الرئيسية، بينما الناس تتابع و تهتف فى حماس و هم يلقون بالزهور على الموكب.

لم تهداء "أنجيليك" إلا بعد أن سمحت لها "هيبرتين" باستخراج الستائر الثلاثة من الصوان، همهمت و هى تقول:

- مازالت فى حالة رائعة.

انتزعت الغلاف الورقى الخفيف الذى يحفظهم فبدت الستائر لوحات فنية رائعة. فى اللوحة الأولى الملائكة و هم يزورون "مريم" العذراء. الثانية "العذراء" و هى تبكى جوار الصليب، بينما فى الثالثة "العذراء" و هى تصعد إلى السماء. تعود هذه الستائر إلى القرن الخامس عشر، منسوجة من الحرير المُذهب. رفضت الأسرة كثيرًا المبالغ الضخمة المعروضة لشراء هذه التحف الخالدة. قالت "أنجيليك" و هى تقفز فى سعادة:

- أمى، سأقوم أنا بتعليقهم.

بدأت الأسرة فى إعداد الدار. أمضى "هيبر" فترة الصباح فى تنظيف الواجهة و السلم، حاول تنظيف كل قطعة حجر تصل إليه يداه. بينما انهمكت "أنجيليك" فى تعليق الستائر فى أماكنها المحددة. واحدة تحت النافذة اليسرى، الثانية تحت النافذة اليمنى، و الثالثة تحت النافذة الكبيرة التى فى الطابق الأرضى، ثم راحت تزين النوافذ بزهور زاهية متناسقة الألوان، فبدت الدار كأنها تستعيد شبابها كما فى الأيام الخوالى السعيدة.

رغم أن الموكب لن يبدأ قبل الخامسة تفاديًا للحر الشديد، إلا أن الضجة دبت فى الشوارع منذ الظهيرة. البلدة بأكملها تتزين. فى مواجهة دار "هيبر" كان الصاغة يزينون متاجرهم بشارات فى زرقة السماء مطرزة بالفضة، بينما تجار الشموع يستخدمون ستائر قطنية حمراء. واجهات البيوت تتزين بألوان كثيرة مبهجة. لا أحد يأبه بالحر الشديد، لا أحد ينزعج من الضوضاء. كلهم يصرخون بصوت عال كأنهم فى بيوتهم. كل الرجال يزينون ديارهم دون أن يحاول أى منهم أن يجرح حرمة جاره أو يتلصص على النساء بالداخل.

لم تستطع "أنجيليك" الاحتفاظ بهدوئها. راحت تقفز فى خفة و نشاط، تحمل أشياء كثيرة، ترتب، تنظف، و عندما بدأت فى إعداد حقيبة الزهور التى ستحملها و شعرها يتطاير خلف ظهرها قال "هيبر" مازحًا:

- لن تتزوجى أحدًا غيرى.

أجابت ضاحكة:

- موافقة.

ضحكت "هيبرتين" ثم قالت:

- بما أننا انتهينا من التزيين يجب أن نبدل ثيابنا الآن.

- حالًا يا أمى، حقيبتى أصبحت جاهزة الآن.

جرت إلى السلم، ثم التفتت تقول:

- حالًا سأكون رائعة الحسن مثل نجمة فى السماء.

فى الثانية ظهرًا، بدأت "بومون" الكنيسة تهدأ. الناس يتجمعون فى الأماكن الضيقة بين البيوت هربًا من الحر الشديد، يتهامسون فى حذر و هم يترقبون، الإيمان فى الوجوه كأن البلدة كلها أصبحت جزء من الكاتدرائية العتيقة. بدأت العربات تتوافد من "بومون" المدينة، رغم أن سكان هذه المنطقة لا يهتمون بالدين بقدر إهتمامهم بالعمل إلا أنهم أغلقوا مصانعهم استعدادًا لهذا اليوم المهيب.

منذ الرابعة، بدأت دار "هيبر" ترتجف من رنين الجرس الضخم الموجود بالبرج الشمالى. ظهرت "هيبرتين" و ابنتها فى الردهة. "هيبرتين" ترتدى ثوبًا من الكتان مزركش بالدانتيل، تبدو فى هذا الثوب كأنها الأخت الكبرى لابنتها، بينما كانت "أنجيليك" ترتدى ثوبًا أبيضًا بسيطًا، لا يوجد أى حلية فى يدها أو حول رقبتها، فبدت مثل زهرة برية بريئة.

مازال رنين الجرس مستمرًا. انطلق الموكب من المطرانية. تجمعت أسرة "هيبر" فى النافذة الواسعة فى الطابق الأسفل، "هيبرتين" و ابنتها فى الأمام، و "هيبر" يقف خلفهما.

من هذا المكان يصبحون أول من يشاهد خروج الموكب من الكاتدرائية دون أن تفوتهم أية تفاصيل. سألت "أنجيليك" و هى تتلفت حول نفسها:

- أين حقيبة الزهور؟

ناولها "هيبر" إياها، ضمتها إلى صدرها ثم هتفت:

- رنات هذا الجرس تشجينى.

بدأ الجميع يتأهب و يترقب. بدأت الرايات تتحرك بنسمات الهواء الذى يهب فى ساعة العصر، و الورود تبث رائحتها العطرة فى المكان.

بعد نصف ساعة تقريبًا، فُتحت البوابة على مصراعيها. بدت الكنيسة من الداخل مهيبة، أضواء الشموع تتلألأ مثل النجوم. ظهر حامل الصليب و على جانبيه المساعدان يحملان الشعلتين، خلفهم الموكب الضخم يبدأه القس "كورونيل" الذى وقف برهة ليتأكد من حسن الاستقبال فى الشارع، ثم التفت إلى الموكب ليتأكد من حسن النظام و الترتيب.

بدأ الموكب بالمؤسسات و الهيئات المدنية، الجمعيات الخيرية و المدارس. يصطفون فى طابور طويل. كان هناك أطفال صغار. الفتيات يرتدين ثيابًا بيضاء مثل ثياب العرس بينما البنين مجعدين الشعر يرتدون ثياب الأمراء. كلهم يلتزمون بالنظام الصارم، يبحثون بأعينهم عن أمهاتهم فى سعادة. هناك طفل فى التاسعة من العمر يسير بمفرده، يغطى أكتافه بفراء الخروف مثل "جان باتيست دو لاسال". أربعة مراهقين يحملون شارة كبيرة منقوش عليها سنابل القمح الناضجة. آنسات يتجمعن حول شارة تحمل صورة العذراء. سيدات يرتدين ملابس سوداء يتجمعن حول شارة القديس "جوزيف". رايات كثيرة تهفهف فى كل مكان. كما كان هناك طابور خاص بالتائبين، الكثير منهم يرتدى ملابس رمادية باهتة.

اعتملت عاطفة الأمومة فى صدر "أنجيليك" عندما رأت الأطفال. راحت تشير إليهم فى حماس و فى عينيها حنين جارف. كان هناك طفل صغير بينهم لا يتعدى عمره الثلاث سنوات، أغرقته بزهورها فراح الطفل يجرى فى سعادة، كان فخورًا جدًا بالزهور المتناثرة على شعره و فوق أكتافه حتى بدا مضحكًا.

ثبت الموكب فى مكانه لمدة دقيقتين، راح القس "كورونيل" يتلفت حول نفسه فى قلق رغم ثقته فى النظام الصارم، و فى أثناء ذلك لمح أسرة "هيبر" فى النافذة فألقى عليهم التحية. سألت " أنجيليك" فى صبر نافد:

- لماذا لا يتحركون؟

أجابت "هيبرتين" بهدوء:

- لا داعى للعجلة.

بينما قال "هيبر" مفسرًا:

- الزحام يا صغيرتى. لا بد أن هناك بعض العراقيل فى المذبح.

بدأ الفتيات اللاتى حول شارة العذراء فى ترتيلاتهن، ارتفع صوتهن حادًا يملأ المكان، و بعد برهة تحرك الموكب. بعد المؤسسات المدنية، كان رجال الدين، فى البداية الأقل فى المرتبة، كلهم يتزينون بشريط مطرز على الكتف. الذين على اليسار يحملون شموعهم فى أيديهم اليسرى و الذين على اليمين يحملون الشموع فى أيديهم اليمنى. بعدهم رعية الكنيسة و الرهبان، يتوسط هذا الطابور المزدوج المرتلين، ينشدون بصوت رخيم مفعم بالإيمان و البهجة. و فجأة هتفت "أنجيليك" فى ذهول:

- القديسة "آنييه"!

ابتسمت للقديسة التى كان يحملها أربعة رهبان على لوح خشبى مغطى بالمخمل الأزرق المطرز بالدانتيل. فى كل عام تندهش لرؤية القديسة تحت الضوء، تبدو مختلفة تمامًا مما هى عليه فى ظلال الكنيسة. التمثال قديم عتيق، داكن من تأثير

السنوات الطويلة. شيء رهيب! تبدو لها عجوز جدًا و شابة صغيرة فى نفس الوقت، تفتنها بسحرها.

بدأت رائحة البخور تهب من داخل الكنيسة، بدأ الناس يتهامسون. فى هذه اللحظة تذكرت معجزات أسرة "هوت كور" تذكرت كل الأساطير التى قرأتها و سمعتها، رسمت فى ذهنها صورًا كثيرة مختلفة لكل أمراء و قديسين هذه الأسرة النبيلة العريقة.

بعد انصراف القديسة "آنييه" أصبح الشارع خاويًا، ثم خرج حامل الصليب و خلفه راهبان يحملان مبخرتين. ثم ظهر السيد "هوت كور" يغطى كتفيه بشريط أبيض، يمتد هذا الشريط ليغلف يديه اللتان يمسك بهما تمثال القديس "ساكرمون". اندهشت "أنجيليك" عندما لمحته.

انحنت كل الجباه لاستقباله، لكنها لم تنحنى إلا قليلًا لتتأكد من ملامحه. كان طويلًا ممشوق القوام، منعم بالصحة رغم بلوغه الستين من العمر، فى عينيه نظرات ثاقبة مثل الصقر، أنفه مستقيمًا شامخًا مما يدل على سطوته و نفوذه. اندهشت لأنها تعلم رجلًا يتشابه تمامًا معه.

كان السيد"هوت كور" منهمكًا فى الصلوات و الدعوات وسط الرهبان المحيطين به، ثم التفت فجأة إلى "أنجيليك"، ارتجفت بشدة، بدا لها صارمًا حازمًا مغرورًا. ثم التفت يتأمل الستائر الثلاثة المعلقة، لم تدرك معنى نظراته، هل هى نظرات حادة ميتة؟ أم نظرات هادئة وادعة؟

كاد قلبها أن يقفز من صدرها عندما رأت الحُلة التى صنعتها بيدها. كان الكاهن يقبض عليها بحرص شديد كأنها شيء مقدس. حوله كان هناك الموظفين بالكنيسة، الإداريين و الحكام. رأت "فيليشيا" وسطهم. لم تندهش عندما رأته فى صورة أمير. أرسل إليها نظرات عابرة كأنه يعتذر عن كذبه عليها، و ردت عليه بابتسامة صافية. لمحته "هيبرتين" هى الآخرى فسألت:

- أليس هذا الشاب الذى أتي إلينا؟

ثم التفتت إلى ابنتها فرأتها شاحبة الوجه، بدأ القلق يغزو قلب الأم التى سألت فى حدة:

- لماذا يكذب علينا؟.. هل تعرفين من هو؟

لم تجب "أنجيليك" لكنها فى داخلها تعلم من هو. لا تجرؤ على الافصاح بشيء لم تتيقن منه. انتابها الفخر و الاعتزاز بالنفس لأنها واثقة من اكتشاف الحقيقة الكاملة عما قريب. و سأل "هيبر" و هو يدلى برأسه من النافذة:

- ماذا حدث؟

كان الموكب يتحرك و اختفى الشاب الذى أشارت إليه "هيبرتين" فقال فى سخرية:

- هذا غير معقول، ليس هو.

اعترفت "هيبرتين" بخطئها. هذا أفضل حل لعدم إثارة الشكوك و المشاكل. توقف السيد "هوت كور" على الناصية و راح يبخر القديس "ساكرمون". فى هذه اللحظة أخرجت "أنجيليك" باقى الزهور التى فى حقيبتها و ألقتها بيد مرتعشة. تطايرت ورودها فى الهواء و سقطت وردتين على رأس "فيليشيا" وسط الزحام. اختفى الموكب فى شارع آخر و بدأت التراتيل المدوية تخفت شيئًا فشيئًا. ثم سألت "أنجيليك" فى مرح:

- أمى، ما رأيك فى الذهاب إلى الكنيسة لمشاهدة عودتهم؟

لم تكن "هيبرتين" ترغب فى ذلك لكنها أرادت التأكد من شكوكها فقالت:

- موافقة إذا كان هذا يسعدك.

جرت "أنجيليك" إلى حجرتها تبحث عن قبعتها. أنساها الارتباك مكان القبعة فراحت تبحث عنها فى كل مكان و هى تجرى إلى النافذة لتتابع الموكب خطوة بخطوة. فى هذه اللحظة مرت سحابة وردية اللون فى السماء الصافية و اطمأن الجميع

إلى أن البركة حلت بالأرض. خرجت من حجرتها تجرى و هى تقول:

- أمى، أنا واثقة أنهم الآن فى أول شارع "ماجلوار".

كانت تكذب. الساعة الآن السادسة و النصف، و لن يستطيع الموكب الوصول إلى هذا المكان قبل السابعة و الربع، و مع ذلك عادت تقول:

- هيا يا أمى، لن نجد لنا مكان.

ضحكت "هيبرتين" رغمًا عنها و هى تقول:

- هيا بنا.

بينما قال "هيبر":

- سأظل هنا، سأنزع الستائر و أعيد كل شىء إلى مكانه.

كانت الكنيسة خاوية. كل الأبواب مفتوحة مثل المنزل المهجور. المذبح الرومانى له مهابة و جلال، أضواء الشموع فى الظل تبدو مثل نجوم تتلألأ فى السماء الصافية. قامت "هيبرتين" و ابنتها بكل الطقوس الدينية، ثم تجولا فى الكنيسة و قالت "هيبرتين":

- كنت أعلم جيدًا أننا أتينا مبكرًا.

قالت "أنجيليك" كأنها لم تسمع شيئًا:

- الكنيسة ضخمة جدًا.

ثم راحت تتأمل المكان فى ذهول كأنها تراه لأول مرة فى حياتها. التفتت إلى برج القديس "جورج" تتأمل النافذة المُجددة، و فى هذه اللحظة دقت الأجراس فهتفت:

- إنهم الآن فى شارع "ماجلوار".

بدأ صوت التراتيل يقترب شيئًا فشيئًا إلى أن دخل الموكب إلى الكنيسة. حامل الصليب فى البداية، ثم القس "كورونيل"، ثم المؤسسات المدنية و الجمعيات الخيرية. شبت "أنجيليك" على أطراف أصابعها لترى بوضوح. الرجال يتجهون إلى اليمين و النساء إلى الشمال. خلال لحظات دبت الحياة فى

كل شبر، بددت الشموع الظلام. لاحظت وجود مقعدين خاليين فصعدت على أحدهما و قالت "هيبرتين" فى حزم:

- إنزلى، هذا ممنوع.

أجابت فى استياء:

- لماذا أنزل، أريد متابعة كل شىء بوضوح.

و فى النهاية أجبرت أمها على الصعود فوق المقعد الآخر. بعد لحظات سرى صوت الأورغن المهيب فى المكان مصحوبًا بتراتيل القساوسة و الرهبان. انتشرت رائحة البخور تملأ المكان، دخلت القديسة "آنييه" محمولة على الأكتاف، و خلفها السيد "هوت كور" يحمل القديس "ساكرمون". لمحت "فيليشيا" جوار السيد، التشابه بينهما واضحًا، ومضت عينيها ببريق خاطف و هى تهتف:

- ابن السيد "هوت كور".

كانت تشعر بذلك، كانت تحلم بذلك، لكنها كتمت شكوكها بداخلها، و الآن أصبح الشك يقينًا، فهتفت بسرها فى سعادة دون أن تشعر بذلك، و همهمت "هيبرتين" بصوت مضطرب:

- هذا الشاب ابن السيد "هوت كور"؟!

كانت الأم " لامبالوز" جوارهما فقالت مؤكدة:

- نعم، ابن السيد "هوت كور". كيف لا تعرفينه. إنه شاب طيب ثرى جدًا. يستطيع شراء البلدة كلها إن أراد.

شحبت "هيبرتين" بينما أكملت " لامبالوز":

- ألم تسمعى بحكايته. توفيت والدته و هى تضعه، و لذلك أصبح السيد "هوت كور" كاهنًا. و اليوم طلب حضور ابنه إلى جواره.. يلقبونه "فيليشيا" السابع.. إنه أمير حقيقى.

خفق قلب "هيبرتين" حزنًا على ابنتها، بينما كانت "أنجيليك" فى غاية السعادة، تشعر كأن الموسيقى تصدح معلنة خطوبتها على الأمير، و راحت تتخيل أفراد الأسرة العريقة التى

ستنضم إليها قريبًا. "نوربار الأول"، "جون الخامس"، "فيليشيا الثالث"، "جون السابع"، و أخيرًا "فيليشيا السابع".

ابتسم لها "فيليشيا"، ردت الابتسامة دون أن تلحظ نظرات السيد "هوت كور" الغاضبة عندما رآهما يقفان فوق المقعد. و همهمت "هيبرتين" فى يأس:

- مسكينة ابنتى!

اصطف الرهبان عن الشمال و عن اليمين، أخذوا القديس "ساكرمون" إلى المذبح. عم صمت مهيب، و راح السيد "هوت كور" يرسم الصليب فى الهواء ثلاث مرات.

(9)

بعد الانتهاء من موكب المعجزات عادت "أنجيليك" إلى دارها و هى على يقين أنها ستراه قريبًا. لا شك أنه سيأتى الليلة إلى حديقة الكاتدرائية. لمحت فى عينيه هذا الموعد دون أية كلمة، و قررت أن تهبط للقائه و الحديث معه.

فى الثامنة مساءً، بدأت أسرة "هيبر" فى تناول العشاء فى المطبخ كالعادة. راحت "أنجيليك" تلتهم الطعام فى شراهة و نفس راضية، على شفتيها ابتسامة حالمة كأنها تعيش فى غيبوبة بعيدًا، كل البعد، عن العالم المحيط بها. "هيبر" يتحدث وحده فى انفعال سعيدًا بالموكب بينما "هيبرتين" ترقب ابنتها بنظرات ثاقبة حازمة، تقرأ كل ما يدور فى رأسها من خلال وجهها الشفاف البرئ.

فى التاسعة، اندهشوا لدقات الباب. كان القس "كورونيل"، رغم إرهاقه الشديد إلا أنه أتى ليخبرهم بإعجاب السيد "هوت كور" بالستائر الثلاث، ثم قال مؤكدًا:

- حدثنى بنفسه عن إعجابه بهذه التحف، أعتقد أنكم ستسعدون لو أخذتهم معى للسيد.

انتبهت "أنجيليك" بشدة عندما سمعت اسم السيد "هوت كور"، و عندما تأكدت من عدم وجود أى أخبار تخص حبيبها وقفت نافرة فى ضيق، سألت "هيبرتين":

- إلى أين؟

فوجئت بالسؤال، ارتبكت قليلًا ثم قالت:

- سأصعد إلى حجرتى، أنا متعبة جدًا.

أدركت الأم أن ابنتها تريد الاختلاء بنفسها لتشرد فى أحلامها على سجيتها، فقالت:

- أين قبلة كل يوم؟

شعرت الأم برجفة ابنتها، نظرت فى عينيها مليًا فأدركت بالموعد الذى بينهما، فقالت ناصحة:

- اعقلى، نامى جيدًا.

بعد أن ألقت "أنجيليك" التحية على أبيها و القس "كورونيل" صعدت إلى حجرتها تائهة. تشعر بسرها يتراقص على شفتيها، لو أن أمها احتضنتها قليلًا لباحت لها بكل ما يدور بخلدها. أطفأت شمعتها، القمر لم يهل بعد فى السماء، جلست وحدها فى الحجرة المعتمة، لم تخلع ثيابها، بل جلست فى الشرفة ترقب الحديقة الغارقة فى ظلام دامس، تنتظر حتى يحين منتصف الليل، حيث الموعد المتفق عليه دون كلمات. شعرت بالقس "كورونيل" و هو ينصرف، سمعت صوت حركات قريب من باب حجرتها كأن أحدًا يتلصص عليها، ثم سمعت صوت إغلاق باب حجرة والديها، ثم صمت ثقيل كأن الدار كلها قد غطت فى نوم عميق. عندما دقت الساعة تعلن منتصف الليل هبت واقفة و هى تقول بصوت عال:

- هيا بنا.

خرجت من حجرتها و نسيت إغلاق الباب، بعد أن هبطت السلم الحلزونى وقفت برهة تتنصت على باب حجرة والديها، اطمأنت الى السكون التام. تعلم جيدًا أنها تسير فى الطريق الخطأ، لكن هناك يد خفية تدفعها إلى مخاطرة بسيطة، مغامرة تسعدها و تدخل البهجة فى روحها البريئة. قفزت إلى الحديقة عن طريق المطبخ، و نسيت إغلاق نافذة المطبخ. و راحت تحث السير بخطوات ثابتة واثقة فى الحديقة. رغم العتمة إلا أن المكان مألوفًا لها، كل الأشجار هنا صديقاتها، يرحبن بوجودها و يسعدن بها، صعدت الجسر الخشبى الصغير و اتجهت يسارًا إلى المجرى المائى. مدت يدها فى الظلام فاستقبلتها يد "فيليشيا".

مرت لحظة صمت، سعيدة بوجود يدها بيديه رغم أنها لا ترى وجهه فى الظلام، كان القمر مختفيًا خلف سحابة كثيفة تحجب أشعته الفضية عن الحديقة، قالت و هى ترتجف فى نشوة:

- أحبك جدًا يا سيدى، و أشكرك جدًا.

ضحكت فى اطمئنان، استطاعت أخيرًا اكتشاف شخصيتة، تشكره لأنه شاب وسيم ثرى، ثرى جدًا أكثر مما تتخيل. حمدت ربها لتحقيق حلمها ثم قالت:

- أنت الملك، أنت سيدى، لن أكون لأحد غيرك، أنا أحبك و أنت تحبنى، و لا أريد شيئًا أخر غير ذلك. مجرد حبك لى و اهتمامك بى يجعلنى أنا أيضًا ملكة.

لف ذراعه حول خصرها و هو يدفعها برفق قائلًا:

- تعالى إلى بيتى.

اصطحبها إلى عمق الحديقة، القمر ينير السماء بضوئه الشفاف عبر سحابة بيضاء رقيقة، الرطوبة الشديدة تحجب النجوم، الكون بأسره فى حالة صمت و تعبُد. راحت تسير جواره و هى تتخيل كيف يقضى أمسياته محكومًا بتقاليد المطرانية و قوانينها الصارمة. تشعر فى نفسها أنه يرفض التقاليد الجامدة، يعشق الحياة بحرية و طلاقة مثلها. صعدا جوار المجرى الذى كان ينساب بيسر و سهولة مثل مشاعرها الفياضة الحالمة، قالت فى نشوة:

- أنا فخورة جدًا و سعيدة جدًا لأنى معك.

انجذب " فيليشيا" لبساطتها و نقائها، تحكى كل ما يدور فى عقلها و يجيش فى أعماق قلبها، لا تعلم شيئًا عن الكذب و الخداع، لا تدرى شيئًا من المكر و الخبث، فقال:

- أنا الذى يجب أن يشكرك على مشاعرك الرقيقة. قولى لى ما دار بخلدك عندما اكتشفتى حقيقتى.

اندفعت قائلة فى لهفة:

- لا، لا، نتحدث عنك أنت. أنا لست مهمة إلى هذا الحد، لا يوجد فى هذا العالم سواك، حدثنى عن نفسك.

كانت تريد أن تعرف كل شىء عنه، طفولته، شبابه، ما حدث فى العشرين عامًا التى قضاها بعيدًا عن والده، قالت لتحثه على الحديث:

- أعلم أن والدتك توفيت وهى تضعك، و أعلم أنك نشأت فى منزل أحد أقاربك، قس عجوز. و أعلم أن والدك كان يرفض رؤيتك.

قال بصوت منخفض هادئ كأنه يأتى من العالم البعيد:

- نعم، والدى كان يهيم عشقًا بوالدتى، و لذلك يتهمنى بقتلها. أحد أقاربها تولى رعايتى بعيدًا عن الأسرة. عشت معه حياة صعبة متقشفة كأننى لا أملك شيئًا. لم أعرف الحقيقة إلا منذ عامين فقط. لم تدهشنى الحقيقة لأننى كنت أشعر أن القدر يخبئ لى ثروة ضخمة. الأعمال التقليدية الروتينية تضايقنى. كنت لا أجيد شيئًا سوى التنزه فى الحقول شاردًا حالمًا. و فى النهاية جذبتنى نوافذ كنيستنا العتيقة.

ضحكت، بينما أكمل هو مبتهجًا:

- أنا عامل بسيط مثلك. رغم ثروتى الطائلة إلا أننى قررت أن أكتسب قوتى من الرسم على الزجاج. يقولون أن والدى كان يحزن بشدة عندما يخبروه أننى مثل شيطان صغير، يرفض الخضوع لأى نظام أو بروتوكول. إنه يحلم أن يجعلنى كاهنًا مثله، ربما يعتقد أن هذه أفضل طريقة لأكفر عن ذنبى فى قتل والدتى.. أوه.. الحياة جميلة، و الحب أجمل شىء فى الحياة.

شعرت بطاقته و حيويته المندفعة من كلماته و رجفاته، كان هائمًا مسحورًا بحبه الأول المفعم بالغموض، مفتونًا بسذاجتها و جمالها وعشقها للحياة. ثم قال:

- أنا ايضًا كنت أبحث عنك مثلك، عندما لمحتك فى الشرفة لأول مرة أدركت أنك أنت من أبحث عنها، إحك لى أحلامك، إحك لى عن أيامك السابقة.

وضعت أصابعها على فمه لتسكته ثم عادت تقول:

- لا، نتحدث عنك أنت، أريد معرفة كل شىء عنك. أنا أحبك، أنا ملكك و ليس لدى شىء آخر أقوله لك.

كانت فى غاية السعادة و هى تستمع إليه، تشعر كأنها قديسة تتعبد فى المحراب تحت أقدام المسيح. كل منهما يصف للآخر حبه بنفس الكلمات دون ملل. الكلمة الواحدة تتجدد، الكلمة الواحدة لها معان كثيرة جميلة عميقة. وصلا إلى نهاية الحديقة، قادها تحت الأشجار الضخمة فهتفت قائلة:

- الحديقة رائعة، كثيرًا ما كنت أحلم بدخولها، الحلم تحقق و دخلتها معك.

لم تحاول أن تسأله إلى أين يقودها، كان الظلام حالكًا، السكون مريبٌ، لا تشعر بالأرض تحت أقدامها، الهواء يخرج من أوراق الشجر طازجًا نقيًا، فتح لها باب منزل خشبى و هو يقول:

- تفضلى، أنت فى دارى.

كان والده يعتقد أن هذا المنزل الخشبى المتواضع فى أحد الأركان المعزولة فى الحديقة هو السكن المناسب لابنه. فى الطابق الأسفل كان هناك صالونًا، و فى الطابق العلوى كل ما يحتاجه المسكن الفاخر المترف. كان هناك لمبة تضئ الطابق السفلى، قال "فيليشيا":

- كما ترين، أنت فى منزل فنان، هذا مرسمى.

كان الطابق السفلى عبارة عن مرسم متكامل، كأنه وكر لشاب ثرى يعشق الفن. كان هناك تحفًا قديمة تعود إلى القرن الثالث عشر، يريد أن يتعلم الفن من منابعه الأولى، يعشق العمل البدائى اليدوى البسيط، تكفيه منضدة قديمة ليقوم برسوماته، على نفس المنضدة يقطع الزجاج، كما كان هناك فرن قديم، يبدو أنه

يستخدمه فى تصنيع الزجاج و فى الطهى أيضًا. فى أحد الأركان قطع كثيرة من عدة نوافذ فى الكاتدرائية يقوم بتجديدها و ترميمها. كان هناك قطع زجاج كثيرة ملونة بكل الألوان. كل شىء يدل على أنه جاد فى عمله، فقالت فى نشوة طفولية:

- أنت فنان حقيقى.

راح يشرح لها طبيعة عمله، يصف لها رحلاته و جولاته فى الكنائس القديمة بحثًا عن الفن الأصيل، يعشق هذا العمل و يرغب فى إجادته. يأتى بالصور أحيانًا من الكتب القديمة، يقوم بالرسم على الورق فى البداية، ثم يقوم بإعداد الزجاج الملون، ثم يبدأ فى تنفيذ اللوحة. يحاول جاهدًا أن تكون أعماله رائعة خالدة مثل كبار الفنانين. كانت تنصت إليه فى سخرية، كل هذا العمل لا يهمها فى شىء. لا تريد سوى الارتباط به و البقاء إلى جواره. ثم قالت فى سعادة:

- ستكون حياتنا رائعة، أنت ترسم، و أنا أطرز.

أخذ بيدها وهو يقودها إلى وسط المرسم، صمتا الإثنان فى نشوة و سرور، ثم قالت فى تهدج:

- لقد تم إذًا.

سأل ضاحكًا:

- ما الذى تم؟

- زواجنا.

تردد لحظة، تغيرت ملامح وجهه البرئ، سألت فى قلق:

- هل أزعجتك؟

ضغط على يدها بعنف، فقالت:

- يكفى جدًا أن نقرر شيئًا ما حتى يحدث، رغم كل العقبات لن أكون لأحد غيرك، و لن أطيع سواك.

ثم أكملت و فى عينيها بريق خاطف:

- سنتزوج، و يظل حبنا إلى الأبد.

لم تشك لحظة واحدة أن الإعداد لزواجهما سيبدأ من الغد، هذا ما يحدث فى كل الأساطير و الحواديت. كل العقبات تنهار تمامًا أمام الحب، ثم قالت لتشجعه:

- اتفقنا، إذًا قبل يدى.

قبل يدها و هو يقول:

- اتفقنا.

همت بالانصراف قبل أن يفاجئها ضوء الفجر و يفضح سرها، حاول "فيليشيا" توصيلها لكنها رفضت قائلة:

- لا، لا داعى الآن، ستقوم بتوصيلى غدًا، إلى الغد.

- إلى الغد.

جرت فى الحديقة و "فيليشيا" يرقبها فى سعادة. كانت تفكر فى إيقاظ والديها الآن لتخبرهما بكل شىء، لا تستطيع الاحتفاظ بالسر أكثر من ذلك. و عندما وصلت إلى الكاتدرائية رأت "هيبرتين" تجلس فى حديقة الدار.

كانت "هيبرتين" تجلس على مقعد حجرى محاط بأشجار الليليك التى زرعتها ابنتها. من قبل، أخبرتها "هيبرتين" أن الأشجار هنا لا تزهر أبدًا، لكنها بالرغم من ذلك تنتظر الأزهار.

قلقت "هيبرتين" أثناء نومها، صعدت إلى حجرة ابنتها لتطمئن عليها، و عندما وجدت الأبواب مفتوحة فهمت ما حدث. لم تدرى ماذا تفعل و أين تذهب. و حتى لا تزيد الأمور تعقيدًا فضلت الانتظار هنا. ما أن رأتها "أنجيليك" حتى ارتمت فى صدرها و قلبها يخفق بقوة و عنف و هى تقول فى سعادة:

- أمى، سنتزوج، أنا سعيدة جدًا.

نظرت الأم إلى ابنتها مليًا تتأمل براءتها و رقتها، تتأمل عينيها الصافيتين، انهمرت دموعها رغمًا عنها و هى تقول:

- مسكينة يا ابنتى!

اندهشت "أنجيليك" لدموعها، ثم قالت:

- ماذا حدث؟ أعترف أننى كنت طائشة، أعترف أنه كان يجب مصارحتك من أول وهلة. كان هذا الأمر يقلقنى، لكنى لم أجد فى نفسى الشجاعة لأحدثك فى مثل هذا الموضوع، يجب أن تسامحينى.

ثم جلست جوار أمها تحت الأشجار الكثيفة و هى تقول:

- أمى، سأقص عليك كل شىء.

راحت تقص عليها كل شىء، ذكرت لها أدق التفاصيل، كل الحوارات. اشتعلت وجنتاها بحمرة الخجل، التمعت عيناها ببريق النشوة و الظفر، و أخيرًا قاطعتها الأم قائلة:

- تريدين تركنا إذًا. تريدين الزواج. ما زلت صغيرة، أنت ترفضين العمل فى المطبخ، أنت مدللة جدًا عندنا و لن تستطيعى تحمل تلك المسئولية.

ضحكت "أنجيليك" رغمًا عنها، فأكملت "هيبرتين":

- لا تضحكى، قريبًا لن تجدى دموعًا كافية لآلامك، هذا الزواج لن يتم أبدًا.

ضاعت ضحكات الصغيرة و هى تقول فى هلع:

- أمى، ماذا تقولين؟ هل تريدين معاقبتى، الموضوع بسيط جدًا. اليوم سيتحدث مع والده، و غدًا سيأتى للتحدث معكم.

راحت "هيبرتين" تعدد لها العقبات و الحواجز الكثيرة. فتاة فقيرة تعمل فى التطريز لا تملك اسمًا و لا مالًا كيف تتزوج من "فيليشيا" سليل أسرة من أعرق أسر فرنسا كلها. و كانت الصغيرة تجيب على كل هذه العقبات بكلمة واحدة: و لما لا؟

- لن يكون زواجًا موفقًا، بل زواجًا شاذًا خارجًا عن المألوف، سيتكاتف الجميع لمنع هذا الزواج.

- و لما لا؟

- يقولون أن السيد "هوت كور" فخورٌ بابنه، صارمًا حازمًا، لن يغامر أبدًا بحياة ابنه.

- و لما لا؟

ثم أكملت مدافعة عن حبها:

- هذا افتراء يا أمى. أنت تعتقدين أن كل الناس أشرار. هل تذكرين ما قلته لك منذ شهرين، فى هذا اليوم سخرتى منى، لكن كل ما حلمت به يتحقق الآن.

- لا تتعجلى فى أحكامك. يجب الانتظار لنرى كيف ستكون النهاية.

دارت رأس "هيبرتين" من اليأس و الألم. يجب أن تخبرها بالحقيقة كاملة. يجب أن تعلمها الدرس القاسى. لكن كيف تتسبب فى مثل هذا الجرح المؤلم للطفلة التى تعهدتها بالاهتمام و الرعاية طوال هذه السنوات. قالت فى توتر:

- يا حبيبتى، لن تتزوجى هذا الشاب أبدًا رغم أنف والده.

برقت عينا الصغيرة ثم قالت بصوت مرتجف:

- لماذا؟ إنه يحبنى و أحبه.

احتضنت الأم ابنتها فى صمت. شعرت بارتجفاتها و شهقاتها. كان القمر قد بدأ يختفى وراء الكاتدرائية، و بدأ يسرى فى الكون ضوء الفجر الخافت مصحوبًا بزقزقة بعض العصافير. ثم قالت:

- يا صغيرتى، السعادة لا تأتى إلا من القناعة و الرضا. الإنسان قد يمضى حياته كلها فى شقاء من أجل الحب. لو أردتى السعادة يجب أن تنسى هذا الموضوع تمامًا.

شعرت بابنتها تطمئن فى أحضانها، ترددت قليلًا ثم قالت:

- هل تعتقدين أننى أنا و أباكى سعداء؟ كان من الممكن أن نكون سعداء لولا شيءٌ واحدٌ ينغص علينا حياتنا.

ثم راحت تحكى لها بصوت منخفض قصة زواجها بدون موافقة أمها، موت طفلها ليس إلا عقابًا سماويًا، غضب الأهل يجلب غضب الرب. يضطران للعمل المستمر رغم عدم حاجتهما

للمال، يفران للعمل هربًا من مواجهة نفسيهما، و مع ذلك تحدث المواجهة من حين لأخر و يتشاجران. ثم أكملت ناصحة:

- فكرى جيدًا يا بنيتى، لا تفعلى شيئًا ستندمين عليه كثيرًا بعد ذلك. اعقلى و ارضى بنصيبك.

شحب وجه الصغيرة، دارت الدنيا فى رأسها، تحاول إرضاء أمها لكن كيف تضحى بحبها الكبير، فقالت فى توسل:

- كلامك يؤلمنى. أحبه و يحبنى.

قررت "هيبرتين" إخبارها بالحقيقة، فقالت:

- لا أريد أن أسبب لك آلامًا أكثر من ذلك. لكن يجب أن تعلمى الحقيقة كاملة. بالأمس، بعد أن صعدت إلى حجرتك سألت القس "كورونيل" عن السبب الذى جعل السيد "هوت كور" يستدعى ابنه إلى جواره. علمت منه أن الأب كان حزينًا لسلوك ابنه المشين، يرفض الخضوع لقواعد المجتمع و الدين، لا شك أن شاب مثله لن يكون شيئًا آخر سوى فنانًا صعلوكًا، و هو يحلم بأن يجعله كاهنًا. لذلك استدعاه إلى هنا ليتزوج فورًا.

سألت "أنجيليك" فى صبر نافد:

- و ماذا بعد؟

- تم اختيار الزوجة قبل وصوله. وقع اختيار الأب على الأنسة "كلارا" ابنة "فوانكور"، أصحاب الفندق المجاور للمطرانية، تعرفينهم طبعًا. نحن لا نملك مثل أموالهم و لا نملك مثل اسمهم. إنهم على علاقة وثيقة بالسيد "هوت كور". و القس "كورونيل" يبارك هذا الزواج.

دارت الدنيا بالصغيرة و هى تفكر فى "كلارا"، تراها أثناء الشتاء فى حديقة الفندق، تراها من حين لآخر فى الكاتدرائية، فى مثل سنها، شقراء، جميلة، تسير بخطوات ملكية واثقة، الكل يمتدح جمالها رغم برودتها و عجرفتها. غمغمت:

- سيتزوج هذه الفتاة الجميلة الثرية!

ثم صرخت:

- إنه كاذب إذًا، لم يقل لى شيئًا عن ذلك.

أدركت الآن لماذا تردد و تبدلت ملامح وجهه عندما حدثته عن الزواج. وضعت رأسها على صدر أمها التى قالت:

- صغيرتى، صغيرتى العزيزة، أشعر بآلامك، لكن لو أصررت على ذلك ستكبر آلامك. يجب أن تنزعى السكين من جرحك و تعودى إلى طبيعتك. السيد "هوت كور" لن يوافق أبدًا على زواج ابنه الوحيد من فتاة لقيطة بلا اسم رباها فقراء مثلنا.

شعرت "أنجيليك" بالبرودة تسرى فى جسدها، برودة تأتى من العالم البعيد. هدأت أنفاسها فجأة من وقع الصاعقة. هل هذا هو البؤس؟ هل هذه الحقيقة المرة هى التى كانت أمها تحدثها عنها و تحذرها مثلما نخيف الأطفال بالثعلب؟ ربما. لكن "فيليشيا" ليس كاذبًا. إنه التزم الصمت فقط. السيد "هوت كور" هو الذى اختار الزوجة و يبدو أن ابنه سيرفض، هو الذى يجب أن يرفض هذا الزواج، أما هى فلا تستطيع أن تفعل شيئًا. لا تستطيع تحدى السيد "هوت كور" و "فوانكور" فى وقت واحد. و بالرغم من ذلك فهى واثقة من أن كل أحلامها ستتحقق، ما زالت مؤمنة بربها. فقالت:

- أمى، أعترف أنى مذنبة، لن أذنب أبدًا بعد اليوم، و سأخضع للأمر الواقع.

تذكرت تعاليم "هيبرتين" لها، تذكرت ما قرأته فى الأساطير. حاولت الاحتفاظ بهدوء و حكمة القديسات و رصانتهم، فقالت "هيبرتين":

- يجب أن تعدينى بأنك لن تفعلى شيئًا ضد رغبتنا أو رغبة السيد "هوت كور".

- أعدك يا أمى.

- وعدينى بألا ترى هذا الشاب أبدًا، و ألا تفكرى فى الزواج منه.

قالت و هى تشعر بغصة فى قلبها:

- أعدك ألا أفعل شيئًا لمقابلته.

احتضنت الأم ابنتها. لا يوجد ما هو أقسى من أن نؤلم الإنسان الذى نحبه حتى نحميه من غدر الدنيا. أصبح ضوء الفجر الطازج واضحًا. زقزقت العصافير، التفتت "أنجيليك" إلى أشجار الليليك ثم قالت:

- معك حق يا أمى، لن تزهر أبدًا.

(10)

فى السابعة صباحًا ـ كالعادة ـ بدأت "أنجيليك" عملها. مرت الأيام متشابهة دون أن تحاول رؤية "فيليشيا". أصبحت قليلة الحديث، تعمل بصمت تام كأنها معزولة عن العالم. تفاجئها "هيبرتين" بنظرات ثاقبة فاحصة من حين لآخر، ترد عليها بابتسامة صافية و نفس راضية. تبدو كأنها قد رضخت للأمر الواقع، و مع ذلك لا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير به طوال النهار. الأمل الذى بداخلها لا يقهر أبدًا، واثقة تمامًا من أن كل أحلامها ستتحقق فى يوم ما. فاجأها "هيبر" قائلًا:

- أنت تعملين كثيرًا. أراك شاحبة.. هل نمت جيدًا بالأمس؟

تجيبه بثقة:

- نعم يا أبى، لم أشعر أننى بصحة جيدة أكثر من هذه الأيام.

ثم اقترحت "هيبرتين" فى قلق:

- ما رأيك فى أن نقوم نحن الثلاثة برحلة إلى "باريس"؟

أجابت "أنجيليك" فى حزم:

- و ماذا نفعل فى هذه الطلبات التى اتفقنا عليها؟ صحتى لا تتحسن إلا من خلال العمل.

فى داخلها، تنتظر حدوث معجزة تقربها من حبيبها. وعدت أمها ألا تحاول الاقتراب منه، لا تستطيع فعل شىء الآن، لكن أذنيها تتنصت على العالم الغامض الذى يحيط بها. اعتادت هذه الهمسات، تعلم جيدًا أن صديقاتها سيساعدنها فى محنتها. تعمل فى صمت و حزم و هى تتنصت على كل حركة تحدث فى الكاتدرائية، تسمع هفهفة النسيم بين الأشجار، تسمع أقدام قواس الكنيسة و هو يضئ الشموع، تسمع خرير المياه فى المجرى القريب، تسمع هفهفة الأجنحة الغامضة حولها، تتلفت فجأة و هى

تشعر بأحد الملائكة يهمس فى أذنيها مبشرًا بالنصر. لكن الأيام تمر و لا يحدث شيء.

و فى أثناء الليل، لكى تحافظ على وعدها لأمها تتجنب الجلوس فى الشرفة حتى لا تراه. تجلس بمفردها ساعات طويلة فى الحجرة المظلمة. و فى ذات ليلة، عندما تأكدت من عدم وجود أية حركة فى الحديقة و لا حتى أوراق الشجر، غامرت، و راحت تسأل العتمة: من أين تأتى المعجزات؟.. بلا شك ستأتى من حديقة المطرانية، تلمح هناك يد خفية مشتعلة تدعوها و ترحب بها. ربما من الكاتدرائية، حيث تدعوها نغمات الأورغن إلى المذبح. لم تندهش من الحمائم الأسطورية التى تحوم حولها، لم تندهش من القديسات اللاتى يرددن فى أذنيها بأن السيد "هوت كور" يجب أن يتعرف عليها. لكنها اندهشت لأن المعجزة لا تتحقق. الأيام تمر، و لا يحدث شيء.

بعد الأسبوع الثانى اندهشت لاختفاء "فيليشيا". عندما وعدت أمها بألا تفعل شيئًا للاقتراب منه، كانت واثقة أنه سيفعل المستحيل للاقتراب منها. مرت خمسة عشر يومًا دون أن تلمح ظله فى الحديقة. مع ذلك لا تفقد الأمل أبدًا، لابد أنه يرتب أموره للزواج بها، و فى هذه الحالة ستجعل المفاجأة سعادتها أكبر و أعظم.

و فى ذات ليلة، بعد عشاء صامت حزين، خرج "هيبر" لقضاء بعض طلبات الدار. ظلت "هيبرتين" مع ابنتها فى المطبخ، راحت ترقبها بنظرات حانية، معجبة بصبرها و جلدها، مُشفقة عليها من معاناتها، منذ خمسة عشر يومًا لم يتحدثا أبدًا، فتحت الأم ذراعيها فارتمت الصغيرة فى أحضانها، قالت "هيبرتين" و هى تحاول الاحتفاظ بهدوئها:

- مسكينة يا ابنتى! كنت أنتظر الانفراد بك لأخبرك أن كل شيء انتهى.

شهقت "أنجيليك" فى اضطراب:

- "فليشيا" مات.
- لا، لا.
- بما أنه لم يأت فهذا يعنى أنه مات.

راحت "هيبرتين" تقص عليها ما حدث. فى صبيحة الاحتفال بموكب المعجزات ذهبت للقاء "فيليشيا". طلبت منه الوعد بعدم الاقتراب من ابنتها إلا بعد الحصول على موافقة والده. و لأنها تعلم جيدًا استحالة ذلك راحت تؤنبه و تلومه. الفتاة صغيرة و ساذجة، لا يجب إستغلال جهلها و العبث بمشاعرها. صرخ "فيليشيا" مؤكدًا أنه سيموت إن لم يرها، مؤكدا أنه ليس خائنًا عابثًا و أكد لها أنه سيتحدث مع والده اليوم. ثم أكملت:

- هذا ما حدث يا بنيتى. أعرف جيدًا أنك عاقلة و لذلك أحدثك بصراحة تامة. أنا معجبة جدًا برصانتك و ذكائك. قبولك بالأمر الواقع المر يؤلمنى. لكن ما زال ينقصك الكثير و الكثير من الصبر و الحكمة... رأيت القس "كورونيل" اليوم. كل شىء انتهى. الأب لا يوافق.

اندهشت الأم... ابنتها لا تبكى مثلما كانت تتوقع، بل تجلس صامتة شاحبة بينما المياه تغلى على الموقد، ثم قالت فى هدوء:

- أمى، لم ينته كل شىء. إحكى لى ما حدث، من حقى أن أعرف كل التفاصيل.

استمعت الصغيرة بانتباه بينما راحت الأم تحكى كل ما علمته من القس، لكنها أخفت بعض التفاصيل حتى لا تصدم ابنتها.

اضطربت حياة السيد منذ أن استدعى ابنه، رأه شابًا صغيرًا يعشق الحياة، مفعم بالنشاط، يحمل ملامح أمه الجميلة الفقيدة. شعر أن قراره السابق بالإبعاد كان قرارًا حكيمًا ذكيًا، ندم كثيرًا لاستدعائه، لقد أمضى عشرين عامًا هادئة قانعًا بعبادة الرب بعيدًا عن كل مشاكل الدنيا. ضحكات ابنه و قلبه النابض

بالطاقة يذكرانه بفراق محبوبته، ثم صرخ قائلًا: يجب حرمان كل من يهوى النساء من الكهنوت.

القس "كورونيل" كان يرتجف و هو يخبر "هيبرتين" بأن هناك همسات غامضة تؤكد أن السيد يغلق الأبواب على نفسه منذ غروب الشمس. يمضى الليل كله باكيًا فى صراع و حزن و ألم. أصبح قلقًا على مستقبل المطرانية. كان يعتقد أنه زهد الدنيا و انتصر على حزنه منذ زمن بعيد. لكن حضور ابنه أعاده إلى سيرته الأولى، القبطان المغامر المغرور. يمضى الليل كله مرتديًا ملابس الزهاد، يطارده شبح زوجته المفقودة، يتخيلها و قد تحولت إلى ذرات تراب داخل تابوتها، ثم يراها أمامه مفعمة بالنشاط و الحيوية و الجمال. عادت الأحزان الرهيبة تهاجمه مثلما حدث يوم وفاتها، و راح يتضرع إلى الله متسائلًا: لماذا أخذتها منى بعد أن عشقتها؟

عندما يخرج السيد من حجرته يكون حازمًا صارمًا، يحاول الاحتفاظ برصانته و حكمته، إلا أن وجهه يكون شاحبًا مرهقًا. و عندما حدثه "فيليشيا" عن حبه استمع إليه دون أن ينطق بأية كلمة، بينما كانت كل خلايا جسده ترتجف. نظر إلي ابنه فى قلق، ليس لأنه يكرهه، لكن شعر أن الواجب يحتم عليه إنقاذ ابنه من آلام الحب. يجب قتل الحب فى نفس ابنه كما يجب قتل الحب فى نفسه. راح يهاجم ابنه بعنف: ماذا؟ فتاة فقيرة، بلا اسم، تعمل فى التطريز؟ لمحتها تحت ضوء القمر؟ كنت تحلم بها مثلما يحدث فى الأساطير؟.. ثم قال فى حزم: مستحيل!.. ركع "فيليشيا" أمام أبيه الكاهن، لم يجرؤ على رفع عينيه إليه لقداسته، راح يتوسل إليه و يرجوه على الموافقة، عرض عليه أن يترك كل ثروة أمه هنا فى الكاتدرائية و يأخذ محبوبته معه و يرحل بعيدًا، لن يراه أبدًا مدى الحياة إذا كان هذا ما يريده. ارتجف الأب و هو يشعر بآلام ابنه، لكنه ارتبط بكلمة مع "فوانكور"، و لا يجب أن يرجع فى قراره أبدًا. و انصرف "فيليشيا" غاضبًا.

هذا ما أخبرته "هيبرتين" لابنتها ثم قالت:

- ابنتى، كما ترين، لا يجب أن تفكرى أبدًا فى هذا الشاب، لا تستطيعى أبدًا تحدى السيد. أتمنى أن تتغير الظروف لكنى لا أرغب أن تحدث المشاكل من جانبنا.

كانت "أنجيليك" تستمع إلى أمها فى هدوء. تشبك يديها فوق ركبتيها دون أية حركة، فقط ترتجف رموشها و هى تشرد بعيدًا، تتخيل "فيليشيا" راكعًا تحت أقدام السيد يدافع عنها بحب و إخلاص.

فكرت كثيرًا بصمت و هدوء بينما كانت المياه تغلى فى الغلاية، نظرت إلى يديها ثم ابتسمت و هى تقول:

- السيد يرفض لأنه ينتظر حتى يعرفنى.

فى هذه الليلة لم تستطع "أنجليك" النوم. تراودها فكرة التوجه إلى المطرانية. قوة الحب الخارقة ستذيل كل العقبات، سيساعدها "فيليشيا" و سينجحان فى إقناع الأب. كلما حاولت النوم ترى وجه السيد أمامها.

هل ستتحقق المعجزة عن طريق هذا الرجل؟.. راحت تتجول فى حجرتها مضطربة، الحر شديد. راحت تتنصت إلى السكون و تسأل الأشجار، المجرى المائى، الكاتدرائية، صديقاتها القديسات اللاتى بجوارها. لم يستطيع أحد إجابتها إجابة واضحة محددة. و فى النهاية قالت بصوت عال:

- غدًا سأذهب إلى السيد.

فى الصباح، أصبحت مقتنعة تمامًا بفكرتها. تعلم جيدًا أن السيد يختفى فى محرابه الخاص كل يوم سبت منذ الخامسة مساءً. يجلس وحيدًا يصلى و يتضرع إلى الله، يتذكر آلامه و أحزانه. هذا هو المكان المناسب و الوقت المناسب. فى الكاتدرائية لن تستطيع أبدًا الانفراد به. سيكون الناس حوله كثيرين، لا شك ستضطرب أفكارها و يتعلثم لسانها فى الزحام. و من حسن الحظ أن اليوم هو السبت.

بدأت تعمل أثناء النهار بنفس راضية و أعصاب هادئة، تحاول ترتيب أفكارها و البحث عن كلمات مناسبة. فى الرابعة أخبرت أمها أنها ستذهب لزيارة الأم "جابير". ارتدت فستانًا بسيطًا و قبعة الحديقة، انطلقت إلى بوابة القديسة "آنييه"، دفعت الأبواب بكل قوتها، لم تأبه لدوى اصطكاك الباب الرهيب.

كانت الكنيسة خاوية. لا يوجد بها إلا تائب واحد يشغل محراب القديس "جوزيف" يختفى فى جلباب أسود طويل فلم تستطع تحديد شخصيته. الصمت ثقيلًا رهيبًا. وقع خطواتها الخفيفة يتردد فى المكان فيرتجف قلبها بعنف. اندهشت من خوفها، أمضت اليوم كله و هى تؤكد لنفسها حقها فى الدفاع عن حبها و سعادتها، كانت تعتقد أنها أقوى من ذلك، لكنها الآن تتردد فى قلق كأنها متهمة. وصلت إلى محراب السيد "هوت كور" و وقفت تنتظره بجوار الدرابزين.

كان المحراب معتمًا فى عمق هذا المكان الرومانى العتيق كأنه كهف فى حضن الجبل. السقف منخفض، لايضيئه إلا الضوء الخافت الآتى من نافذة القديس "جورج" المصنوعة من الزجاج الملون بالأحمر و الأخضر و الأزرق. الهيكل مصنوع من الرخام الأبيض و الأسود، خالى من أية نقش سوى الصليب و شمعدان مزدوج، يبدو مثل قبر مهجور، الحوائط مبنية من الأحجار المعشقة الداكنة من تأثير السنوات الطويلة، بالرغم من ذلك مازالت الكلمات المنقوشة بارزة واضحة.

مر جوارها راهبٌ داخلٌ إلى العمق دون أن يلتفت إليها كأنه لا يراها، بينما كانت ترقب التائب بنظراتها من حين لآخر. قرأت على الأحجار أسماء كثيرة تعرفها "جون الخامس"، "راؤول الثالث"، "هيرفيه السابع"، تعلم أساطيرهم جيدًا. كما كان هناك اسم "لورات" و "بالبين". كثيرًا ما بكت فى حجرتها على الاسمين الأخيرين. "لورات" أصابه القمر بسحره و هو يلتقى بمحبوبته فيسقط ميتًا. أما "بالبين" توقف قلبها من الفرحة

عندما عاد زوجها من الحرب بعد أن كانت تعتقد أنه قُتل. "أنجيليك" واثقة تمامًا أنها رأت أشباح هذين القديسين عندما ذهبت مع والديها إلى ضيعة "هوت كور".

ارتجفت عندما سمعت اصطكاك الباب يدوى فى المكان. التفتت تبحث عن التائب كأنها تستنجد به فلم تجده. أصبحت وحيدة فى الكاتدرائية كلها. سمعت خطوات على السلم و همهمة الثياب الفضفاضة. تحجرت فى الظلام شاحبة الوجه، و ظهر السيد "هوت كور" متجهًا إلى محرابه الخاص، لم يلحظها من أول وهلة، وعندما التفت إلى المذبح رآها راكعة أمامه.

ارتبكت و هى تنحنى له احترامًا فوقعت على ركبتيها. بدا لها كأنه إله إغريقى، إنه السيد الحاكم، الآمر الناهى فى المنطقة كلها. وقف صامتًا، تذكرها، استجمعت شجاعتها بسرعة ثم قالت:

- سيدى، أتيت لترانى. رفضتنى قبل أن تعرفنى. أنا المحبة و المحبوبة، و لا أملك شيئًا سوى هذا الحب. أنا الطفلة اللقيطة التى التقطت على باب هذه الكنيسة.. أركع تحت قدميك. أنا صغيرة ضعيفة خاضعة. من السهل جدًا أن تدهسنى إن ضايقتك. تستطيع قتلى بإشارة واحدة من إصبعك. أنا أتعذب و أستحق شفقتك. أنا جاهلة وحيدة لكنى أحب. أليس هذا يكفى؟

ابتلعت ريقها، ثم أكملت تعترف بكل شىء بإيمان صاف، قالت متلعثمة:

- أحب كل منا الآخر. بالتأكيد شرح لك كيف حدث ذلك، لكنى فى الحقيقة لا أعرف كيف أحببته. لو كان الحب جريمة فيجب أن تتسامح معنا لأننا جميعًا خُلقنا من التراب الذى تحت أقدامنا. أحببته قبل أن أعرف من هو. اكتشفت حقيقته مؤخرًا. تستطيع أن تحبسه عندك، تستطيع أن تزوجه من أخرى، لكن لن تستطيع أبدًا أن تمنعه من حبى. سيموت بدونى، و سأموت أنا

أيضًا بدونه. أشعر به حولى و إن كان بعيدًا عنى، كل منا يعيش بداخل الآخر. إنه قدرنا، لا تمنعنا من هذا الحب.

وقف السيد يتأملها صامتًا، رآها صغيرة، بسيطة، لها رائحة الورود و هى ترتدى ثوب العاملات الفقيرات. نبرات صوتها و هى تبوح بآلامها يخترق كل الحواجز. سقطت القبعة على كتفها فبدت بشعرها الذهبى مثل قديسات الأساطير. رفعت رأسها قليلًا ثم قالت:

- كن لطيفًا معنا، رحيمًا بنا، أنت السيد الذى يفعل كل ما يستطيع من أجل إسعاد الآخرين.

حنت رأسها مرة أخرى بعد أن رأته باردًا صامتًا ثابتًا. لقد جعلته هذه الصغيرة الراكعة تحت قدميه يتذكر كل معاناته فى عشق زوجته. إنها تتعذب بالحب مثله و ترجوه أن يدعها تنعم بحبها. بكت ثم قالت فى صراحة متناهية:

- أنا لا أحبه هو فقط، أحب نبله و اسمه البراق، و الثروة الطائلة. أعلم جيدًا أن المال لا يساوى شيئًا إذا ما قورن بالحب. لكنى أعترف بأنى أحب ثروته. أعترف بكل شىء لأنه يجب أن تعرفنى على حقيقتى. أحلم أن أصبح ثرية من خلاله و معه لنعيش أحرارًا ننعم بحبنا بعيدًا عن أى بؤس. منذ أن أحببته أحلم بالمجوهرات و الأحجار الكريمة، أحلم بالخيول و التجول فى الغابات برفقة الخدم. أحبه لأنه الفارس الذى سيحقق أحلام الطفولة، هل هذا خطأ؟

تأملها السيد صامتًا، إنها فعلًا تستحق أن تكون أميرة لجمالها و بساطتها و صدقها مع نفسها و مع الآخرين. خفق قلبه بشدة لدموعها، لكنه مع ذلك ظل ثابتًا كقطعة من الصخر، يجاهد كثيرًا حتى لا تبدو انفعالاته على وجهه. هذه طبيعته. أو هذا ما تعلمه خلال عشرين عامًا من الحزن الصامت و الألم المبرح فى محراب الحب. قالت الصغيرة فى يأس:

- أنا بين يديك و يجب أن ترحمنى.

السيد لا يقل شيئًا، يرعبها بصمته، بدا لها عملاقًا ضخمًا. بدأت الكاتدرائية المعتمة تتسع من حولها. لمحت فى عينيه بريقًا خاطفًا. هل غضب عليها؟ قالت:

- سيدى، أتيت إليك حتى لا ألوم نفسى، حتى لا أشعر أننى تسببت فى تعاستى و تعاسة ابنك بضعفى و جبنى. قل إننى على حق.

لم يجد السيد شيئًا يقوله لها. لقد أخبر ابنه برأيه من قبل، من تكون هذه الفتاة حتى يتحدث إليها. حاولت "أنجيليك" تقبيل يده فرجع خطوة إلى الوراء، احتقن وجهه بالدماء، ثم صرخ فى غضب:

- مستحيل!

انصرف السيد دون أن يقم صلاته، اختفى فى المتاهة الغامضة، و ظلت "أنجيليك" تبكى فى الكنيسة الضخمة الصامتة.

(11)

قصت "أنجيليك" لوالديها كل ما حدث فى المساء. أخبرتهما فى هدوء و هى شاحبة الوجه كيف رفضها السيد فى غطرسة و غرور.

اضطرب "هيبر". ابنته تتعذب، الدماء تنزف من قلبها، الدموع متحجرة فى عينها. لا يدرى ماذا يفعل من أجلها، فقال:

- يا صغيرتى العزيزة، لماذا لا تستشيرينى؟ كنت سأذهب معك، ربما استطعت إقناعه.

أخرسته "هيبرتين" بنظرة حادة. ألا يجب استغلال الفرصة حتى نمنع الصغيرة من الحلم بالزواج المستحيل. احتضنت ابنتها و هى تقبلها فى رأسها ثم قالت:

- انتهى كل شىء كما قلت لك.

- بالتأكيد يا أمى.

اقتنع "هيبر" برأى زوجته و بدأ يعمل على إبعاد "فيليشيا" الذى يبدو عاجزًا حتى الآن على الثورة ضد أبيه. لم يحاول "فيليشيا" الاقتراب منها احترامًا لوعده، و لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير بها طوال الليل و النهار. هداه عقله إلى أن الرسائل هى أفضل حل. و لكن الرسائل مُنعت فى الطريق. ذهب إلى دارها ليطمئن عليها، استقبله "هيبر" و راح يؤكد له أنه يجب الابتعاد عن ابنته. استعادت بعض هدوئها و لا يجب أن نعيدها إلى الدوامة التى غرقت بها فى الشهر الماضى. بينما راح "فيليشيا" يؤكد له حبه و إخلاصه. يذهب إلى أسرة "فوانكور" يومين كل أسبوع حتى لا يثير عناد والده. ثم طلب منه إبلاغ "أنجيليك" أنه لا يفكر فى شىء إلا سعادتها، أنه ما زال يحاول إقناع أبيه بتعقل و هدوء.

عندما علمت "هيبرتين" بذلك صمتت برهة ثم سألت فى هدوء:

- هل ستبلغ الرسالة للطفلة؟

- يجب ذلك.

- إفعل ما يمليه عليك ضميرك... أنت واهم. سيخضع فى النهاية لرغبة والده، و ابنتنا المسكينة ستموت ألمًا.

تردد "هيبر" و قلبه يعتصر من الحزن و الحسرة. خضع لرأى زوجته. كل يوم يمر يتأكد من صحة رأيها. الصغيرة تعمل فى هدوء، فتؤكد "هيبرتين" هامسة:

- ترى جيدًا أن الجرح يندمل.. ستنسى.

"أنجيليك" لا تنسى أبدًا. مات بداخلها كل أمل لكنها تنتظر حدوث معجزة. ستحدث المعجزة إذا كتب الله لها السعادة. تعتقد أن هذا ابتلاء من الله لاختبار إيمانها، لا تشك لحظة فى رعاية الله للبشر، لولا رعايته يصبح كل شىء فى الكون مجنونًا، و لأنها فى أشد الحاجة إلى رعايته يجب أن تكون خاضعة قانعة. لا شك أن الملائكة التى تحيطها ستصنع المعجزة. عادت تقرأ كل ليلة كتابها العتيق "الأساطير الذهبية " فيعود إليها صفاء الطفولة و تصبح أكثر يقينًا من حدوث المعجزة.

أتى إلى الدار المسئول عن أثاث الكاتدرائية يطلب تحفة فنية لتزين المقعد الأسقفى الخاص بالسيد "هوت كور". كانت القطعة المطلوبة بطول ثلاثة أمتار و عرض متر و نصف. يجب إحاطة اللوحة بإطار خشبى مزركش. فى اللوحة ملكين يحملان تاجًا أسفله شعار النبالة الخاص بأسرة "هوت كور". التطريز الدقيق يتطلب مهارة فنية عالية و مجهود عضلى كثيف. حاول الوالدان الرفض. شعار النبالة الذى ستصنعه بيدها سيجعل قلبها ينزف ندمًا و حسرة. لكنهما وافقا عندما أبدت هى رغبتها فى القيام به. و بدأت العمل بكل طاقتها كأنها تريد نسيان آلامها بالعمل المضنى الشاق.

مرت الأيام متشابهة منتظمة فى المشغل العتيق كأن شيئًا لم يحدث. "هيبر" يرسم كثيرًا ثم يعمل على النول."هيبرتين" تساعد ابنتها، عندما يحل المساء يشعران بأصابعهن مُخدرة من الإرهاق الشديد. العمل مرهقٌ فى غاية الدقة و غاية الروعة. اللوحة تبرق بالخيوط الذهبية بريقًا غامضًا مهيبًا. كسرت "أنجيليك" إبرًا كثيرة، كان من الصعب العمل بالخيوط الغليظة المكسوة بالشمع لكنها تنهمك فى العمل بكل كيانها و وجدانها. ثم تغط فى نوم عميق منذ التاسعة مساءً. عندما تسمح لها ظروف العمل بالشرود بضعة دقائق تندهش لاختفاء "فيليشيا". إذا كانت لا تستطيع أن تفعل شيئًا للاقتراب منه يجب أن يسعى هو للاقتراب منها. ثم تلتمس له الأعذار. يجب أن يكون عاقلًا حكيمًا لاجتياز الأزمة. العجلة قد تثير مشاكل كثيرة لا داعى لها الآن. لا شك أنه مثلها ينتظر المعجزة. لا يوجد أى أمل إلا المعجزة الإلهية و قد تحدث المعجزة غدًا. تحاول أن تكون قانعة راضية، تتمرد على إرادة الله من حين لأخر ثم تعود إلى هدوئها طمعًا فى رضا الرب.

كانت "هيبرتين" فى غاية القلق على ابنتها التى تفنى نفسها فى العمل، و عندما حان موعد الغسيل انتهزت الفرصة، أجبرتها على ترك العمل لمدة أربعة أيام لتنعم بالنشاط و الحيوية تحت أشعة الشمس الدافئة.

أتت الأم "جابير" للقيام بعملها بعد أن هدأت آلامها. كان الجو رائعًا فى نهاية أغسطس، الشمس ساطعة، السماء صافية، الهواء طازجٌ يأتى من المجرى المائى المحاط بأشجار الصفصاف. أمضت اليوم الأول فى سعادة مستمتعة بالمكان المحبب إليها. ألم تتعرف على "فيليشيا" فى هذا المكان؟ فى البداية ظلال غامضة تحت ضوء القمر، ثم رائع الجمال تحت أشعة الشمس. تذكرت يوم جرى ينقذ الثياب من المجرى المائى. لم تستطع أن تمنع نفسها بعد غسل كل قطعة من إلقاء نظرة

خاطفة إلى المطرانية. هل ستُفتح الأبواب و يخرج "فيليشيا" ليصطحبها تحت أقدام أبيه ليبارك زواجهما؟ جعلها هذا الأمل تقفز فى الحديقة بخفة و نشاط.

فى اليوم التالى، عندما كانت الأم "جابير" تقوم بتعليق آخر قطعة من الثياب قطعت ثرثرتها التى لا تنتهى فجأة ثم قالت فى بساطة:

- هل تعلمين أن السيد سيزوج ابنه؟

جلست "أنجيليك" على الأعشاب و هى تشعر بوخزة فى قلبها ثم قالت:

- نعم. الجميع يتحدث عن ذلك... ابن السيد سيتزوج الأنسة "فوانكور" فى الخريف... يبدو أنه تم إعداد كل شىء منذ يومين.

ظلت جالسة على الأعشاب حائرة. الخبر لا يدهشها. تعلم جيدًا هذه الحقيقة. ما يدهشها هو خضوع "فيليشيا" لإرادة والده. ستفقده إلى الأبد، لم تكن تتوقع أبدًا أن يكون ضعيفًا إلى هذا الحد. برقت فى رأسها فكرة مجنونة، يجب أن تقتحم المطرانية و تذهب إليه الآن لتشجعه على الصمود أمام والده. حاولت أن تدارى ارتباكها أمام الأم "جابير" فقالت رغمًا عنها:

- سيتزوج الأنسة "كلارا". يقولون أنها جميلة جدًا و طيبة جدًا.

أكدت لنفسها أنه يجب الذهاب إليه فور انصراف المرأة العجوز. لقد انتظرت كثيرًا. لن تلتزم بوعودها. لن تسمح لأى حواجز بينهما. لماذا كل هذه العقبات؟ كل شىء فى المكان يصرخ بداخلها، الحب، الكاتدرائية، المياه الطازجة، النقوش العتيقة، ألم تعرف الحب فى هذا المكان؟ إذًا يجب استعادة حبها فى نفس المكان. و فجأة اقتحم أذنيها صوت العجوز و هى تقول:

- انتهى الغسيل، و سيجف خلال ساعتين، طاب مساؤك، لا داعى لوجودى الآن.

أصبحت بمفردها الآن وسط قطع الملابس تهفهف حولها من كل ناحية. صورته لا تفارق ذهنها. الذكريات كثيرة و أليمة. لماذا لا يأتى؟ إنه يعلم جيدًا موعد الغسيل. ربما يرقبها الآن و لا يريد الاقتراب منها. لو أتى لن تلومه على ضعفه و تخاذله. فقط يجب أن يأتى لينعما بالسعادة بضعة لحظات.

مرت ساعات و هى تتجول حول الغسيل. صوت بداخلها يمنعها من الذهاب إليه. لا تملك شيئًا فى هذه الدنيا سوى حبها فقط. تخشى الدخول فى مواجهة غير مضمونة العواقب. ثم تقول فى نفسها لا أحد يستطيع أخذه منى. سأخذه إلى مكان بعيد حيث لا يرانا أحد. ثم تتذكر وعدها لأمها.

أتت "هيبرتين" لتعاونها على لم الغسيل. قررت "أنجيليك" أن تفكر فى هذا الأمر جيدًا عندما تنفرد بنفسها فى حجرتها. و قبل أن تذهبا ألقت نظرة قلقة على حديقة الكاتدرائية التى كانت ساحرة غامضة ساعة الغروب.

مرت الأيام و هى مازالت مترددة. لم تستطع الوصول إلى الحل الصحيح المضمون. لا يعود إليها هدوئها أبدا إلا عندما تؤكد لنفسها أنها محبوبة. طالما أنها محبوبة تجد فى نفسها القدرة على الصبر و تحمل كل شىء. فى هذه الأيام أصبحت شديدة الحساسية سريعة التأثر لآلام الأخرين. عادت لمساعدة الفقراء بكل ما تملك. و فى ذات يوم، عندما كانت ذاهبة لتقديم ثوب قديم لأسرة "لامبالوز" لمحت من بعيد السيدة " فوانكور" و ابنتها بصحبة "فيليشيا". اختفت فى مكان قريب حتى لا يراها أحد ثم عادت إلى دارها بقلب مُثقل بالجراح. و بعد يومين حدثها الأب "ماسكار" بدهشة و سعادة عن زيارة الشاب الطيب بصحبة السيدتين الجميلتين. هجرت فقرائها حتى لا تلتق به. رؤيته تضغط على جراحها بقوة و هى عاجزة عن تحمل الألم. و فى ذات ليلة عندما كانت بمفردها فى حجرتها صرخت قائلة:

- إنه لا يحبنى!

عندما رأت "كلارا" عن كثب رأتها راقية، جميلة بشعرها الأسود و هو يقف بجوارها ممشوق القوام فخورًا بنفسه. إنهما من طبقة واحدة، كل منهما خُلق للآخر، يجب أن يتزوجا. إنه لا يحبنى! لا يحبنى!

تزعزع إيمانها. ما تعتقده أثناء الليل لا تعتقده أثناء النهار. لا يوجد شيء واحد يقينى. تذكرت عندما قال لها: لا يوجد ما هو أبشع من أن يتعذب الإنسان وحيدًا. لا يوجد أمامها حل سوى انتظار المعجزة فى استسلام تام.

بدأت تواسى نفسها. إذا كانت هى تحبه و هو لا يحبها، فهذا يعنى أنها أفضل منه، أنها أكثر منه إخلاصًا، أكثر منه رقيًا. بداخلها مشاعر إنسانية نبيلة لا توجد بداخله. أصبحت تعمل فى تطريز شعار النبالة الخاص بأسرة "هوت كير" بنفس كسيرة، تعمل بلا مبالاة و هى تشعر بالخجل من نفسها، تطأطئ رأسها حتى لا يرى والديها دموعها، لم تنجح فى قتل الحب بداخلها. ما زالت تفكر من حين لآخر فى أن تجرى إليه، تركع تحت أقدامه لتستعيده. ثم تلوم نفسها على أفكارها الطائشة. يجب أن تكون أكثر حكمة و تعقلًا حتى تساندها الملائكة.

و في ذات ليلة قررت الذهاب إليه مهما حدث ثم تذكرت فجأة الدفتر الخاص بطفولتها. أخرجته من الصوان و راحت تقلب صفحاته و هى تتنهد فى آسى مع كل صفحة من صفحاته الكئيبة. بلا أب، بلا أم، بلا اسم. مجرد رقم جواره تاريخ الميلاد. نبات شيطانى بلا جذور ما أسهل سحقه تحت الأقدام. تذكرت الحظيرة الواسعة و البهائم التى كانت تخدمها فى دار "نيفار". تذكرت خطواتها حافية الأقدام على الطرق الطينية الضيقة. تذكرت الأم "نينى" و هى تضربها عندما سرقت التفاح. تذكرت الرعب الذى كانت تشعر به كل ثلاثة أشهر عندما يحين موعد توقيع الحاضن لها. تذكرت العقاب الشديد و المعاملة اللا آدمية إذا كانت هناك ملاحظات عن سلوكها العنيف. هذا هو تاريخها

المخزى يطاردها. على أحد الصفحات قرأت مواصفات العُقد الذى ظل يلتف حول رقبتها حتى بلغت السادسة من العمر. كان هذا العُقد يجعلها تشعر بأنها جارية تباع و تشترى لكل من يدفع إليها بقطعة خبز جافة. كان هذا العُقد مصنوعًا من الحرير، يتدلى منه قطعة معدنية تحمل تاريخ دخولها إلى قسم الشرطة و الرقم الخاص بالمحضر. لم يسمحوا لها بخلع هذا العقد إلا عندما بلغت السادسة. فى هذه اللحظة مزقته بغل. فى بعض الأحيان تشعر أن هذا الدفتر ينقذها من الضياع.

لم تذهب للقائه، ظلت فى حجرتها تحاول النوم دون جدوى. قرأت "الأساطير الذهبية" و هى تندهش للمعجزات الكثيرة. تنتظر معجزة واحدة تنتشلها من هذا الضياع، لكن يبدو أن الملائكة انصرفت عنها. الظلام فى الحجرة دامسٌ، لا تسمع هفهفة الأجنحة، لا تشعر بالقديسة "آنييه" حولها. لماذا تتركنى يا ربى وحيدة ضعيفة؟ لماذا لا تحدث المعجزات؟ فتحت الشرفة عن آخرها. الحديقة أيضًا معتمة ساكنة لكنها اطمأنت عندما سمعت هفهفة الأجنحة. القديسة مازالت تحفظها من كل شر. عاد إليها بعض هدوئها فذهبت إلى فراشها و هى تتمنى الموت.

فكرة أنه لا يحبها جعلتها عاجزة تمامًا عن الصمود، أصبحت تعمل بفتور. عفت نفسها الطعام، لا تشرب إلا جرعة حليب تحت ضغط و إلحاح شديد من والدتها، تلقى بطعامها لدجاجات الجيران حتى لا تزعجهما، خفت بريق عينيها. طلبوا الطبيب لكنه لم يستطع تشخيص مرض محدد، ثم قال: ربما بسبب حياة التقشف التى تحياها. أصبح جسدها ضعيفًا هشًا، تتأرجح فى خطواتها كأنها تتحرك بمساعدة أجنحة خفية، و بالرغم من ذلك تحاول التماسك، تحاول إتمام عملها الضخم الذى سيزين مقعد السيد.

و فى ذات يوم اضطر "هيبر" و زوجته للخروج، تركا الصغيرة وحدها فى المشغل. عاد "هيبر" قبل زوجته ليرى ابنته مغشيًا عليها جوار النول، هتف فى جزع:

- صغيرتى، حبيبتى، ردى علىّ!

حاول معاونتها على الوقوف فسقطت مرة أخرى و هى ترميه بنظرات متسائلة، لماذا تريدون لى الحياة؟ الموت أرحم كثيرًا. سأل "هيبر" فى قلق:

- تخدعينا إذًا؟ مازلت تحبينه؟

رمته بنظرات يائسة دون أن تجيب. حملها إلى حجرتها. بكى بشدة عندما رآها فى فراشها ضعيفة، شاحبة، ندم بشدة لأنه لم يخبرها بالحقيقة ثم سألها:

- لماذا لم تخبرينى بالحقيقة؟

لم تجب. أغلقت عينها و غطت فى نوم عميق، و بعد أن اطمأن على أنها مازالت على قيد الحياة هبط إلى الطابق الأسفل و فى نفس اللحظة عادت زوجته. أخبرها بما حدث ثم انفجر غاضبًا:

- أخطأنا. خطأنا كبيرًا. مازالت تحبه بكل كيانها. فصلنا بينهما عن طريق الكذب. يجب فعل أى شىء لإنقاذها.

صمتت "هيبرتين" مثل ابنتها. تبدو جامدة و فى عينيها نظرات الحزن و الألم، بينما لم يستطع "هيبر" الهدوء فقال ثائرًا على غير عادته:

- سأخبرها بالحقيقة. سأخبرها أنه مازال يحبها، سأخبرها أنه أتى إليها و نحن منعناه من رؤيتها. دموعها تحرق قلبى. ستموت، يجب أن نعمل على إسعادها بأية طريقة.

ظلت "هيبرتين" صامتة، فأكمل ثورته:

- إنهما يتحابان. من حقهما أن ينعما بالسعادة.

قالت "هيبرتين" بصوت هادئ صارم:

- تريد أن يتزوجا رغم إرادتنا و رغم إرادة والده؟ هذا ما تنصحها به؟ تعتقد أنهما سيسعدان بحياتهما، تعتقد أن الحب يكفى...

ثم أكملت في حدة:

- فى طريق العودة مررت جوار المقابر، دخلتها و صليت من أجلها.

شحب وجه "هيبر"، هدأت ثورته فجأة عندما سمع كلمة "المقابر". تقصد قبر الأم العنيدة. كثيرًا ما ذهبا معًا إلى هناك، كثيرًا ما صليا على قبرها يطلبان منها الصفح، لكن الأم الميتة ظلت فى قبرها صامتة غاضبة عليهما، و الدليل على ذلك موت ابنهما الوحيد ثم عدم الإنجاب أبدًا بعد ذلك. أكملت "هيبرتين":

- صليت و دعوت كثيرًا، انتظرت أى إشارة من القبر أو فى داخلى.

انتبه "هيبر" و في عينيه تساؤلات حائرة، أكملت "هيبرتين":

- لم يحدث أى شىء. كُتب علينا التعاسة لعدم طاعة الأهل.

ارتجف "هيبر" قائلًا:

- تتهمينى إذًا؟

- نعم. أنت المسئول. و أنا أخطأت لأننى وافقتك على العصيان. فسدت حياتنا كلها بسبب عصيان الأهل.

- لست سعيدة إذًا؟

- نعم. لست سعيدة. أحبك بالتأكيد، لكن الحب لا يكون مباركًا للمرأة إلا عن طريق إنجاب الأطفال.

سقط "هيبر" على المقعد و راح يبكى بشدة بينما "هيبرتين" واقفة صامتة فى مكانها دون أية حركة أو كلمة. فى الماضى عندما كانت تضايقه بأية لمحة أو إشارة تعبر بها عن

ألمها كانت تسارع بتهدئته، لكنها اليوم لا تفعل شيئًا. قال "هيبر" فى آسى:

- مسكينة هذه الطفلة. أنت تعاقبينها دون ذنب. تمنعيها من الزواج بمن تحب حتى تعانى و تتألم مثلك.

قالت "هيبرتين" في هدوء:

- ترى جيدًا أنها تذبل و تموت بهذا الحب. هل تتمنى لها الموت؟

- نعم، الموت أرحم لها من الحياة التعسة.

تلقفته فى أحضانها و هو يبكى، ربتت عليه برفق و هى تشاركه البكاء، عندما هب واقفًا استندت هى عليه كأنها تستمد منه القوة و الشجاعة لمواجهة الحياة التعيسة.

منذ هذا اليوم لم تخرج الصغيرة من حجرتها. الدنيا تدور حولها، قدماها ترتجفان. أصبحت عاجزة تمامًا عن النزول إلى المشغل. فى الصباح الباكر و المساء تبذل مجهودًا كبيرًا للجلوس فى الشرفة. تسير فى حجرتها و هى تستند على قطع الأثاث. تركت العمل الشاق الخاص بالسيد لكنها بالرغم من ذلك تنهمك فى عمل آخر، تطرز ورودًا رائعة الجمال على قطعة من الساتان.

لماذا إذًا الصبر و المواجهة؟ لماذا الأمل و المحاولة فى عناد؟ إنه لا يحبها، ربما لم يحبها أبدًا فى يوم من الأيام. هذه الفكرة القاسية جعلتها تنهار تمامًا، تذبل يوما وراء يوم، و إن كانت تفكر من حين لآخر فى الذهاب إليه لاستعادته.

و فى ذات صباح، بعد أن عاونها "هيبر" على الجلوس قالت و هى تبتسم:

- أنا عاقلة جدًا و حكيمة جدًا. لن أفعل شيئًا أبدًا لأفوز بملذات الحياة.

لم يقل "هيبر" شيئًا، خرج و هو يبكى.

(12)

فى هذه الليلة لم تستطع "أنجيليك" النوم. والداها نائمان منذ فترة طويلة، الساعة تقترب من منتصف الليل. ضاق صدرها، و خشيت من الموت وحيدة فى فراشها.

ارتدت قميص النوم ثم فتحت الشرفة عن آخرها، جو الشتاء هادىء رطب. جلست على مقعدها خائرة القوة بينما كان ضوء المصباح الخافت الذى يضيئونه طوال الليل ينساب على المنضدة المجاورة لها. على المنضدة كتاب "الأساطير الذهبية" و بجواره قطعة الستان التى تطرز عليها زهورها الحمراء. راحت تطرز حتى تشعر بأنها على قيد الحياة. تبدو الورود الحمراء فى يدها البيضاء المرتجفة كأنها قطرات من دمها النازف.

كانت تتقلب على الفراش طوال ساعتين بحثًا عن النوم دون جدوى، و عندما بدأت فى التطريز أتاها النوم فجأة. سقطت رأسها على ظهر المقعد و هى تميل قليلًا ناحية كتفها الأيسر. توقفت يداها عن العمل، غطت فى نوم عميق تحت الضوء الخافت و بدت الحجرة كأنها قبر لقديسة طاهرة بريئة.

بعد ساعتين، ظهر "فيليشيا" فى الشرفة شاحبًا مرتجفًا مثلها. اقتحم الحجرة، رآها جميلة نائمة فخفق قلبه بشدة مشفقًا عليها. لقد دمرتها الأحزان تمامًا حتى أصبحت مثل ريشة صغيرة فى مهب الريح. المعاناة و الاستسلام واضحان تمامًا على ملامح وجهها. تبدو مثل الملائكة بشعرها المذهب المنساب على كتفيها و روحها الصافية التى تشع من خلال جلدها الناعم الأملس، فجلس تحت أقدامها صامتًا.

أنفاسه الدافئة أيقظتها، اتسعت عيناها فجأة، لم تتحرك، فقط ابتسمت فى استسلام كأنها فى حلم جميل. دبت الحياة فى كل خلايا جسدها الهزيل، اعتقدت أنها فى حلم رائع، قال:

- روحى الغالية، أحبك.. قالوا لى أنك تتألمين فأتيت على الفور لأقول لك أحبك.

فركت عينيها بحركة تلقائية، و أكمل:

- لا تشك فى شىء.. أنا تحت أقدامك.. أحبك و سأحبك إلى الأبد.

هتفت قائلة:

- لم أكن أنتظرك أبدًا فى هذه اللحظة.

قبضت على يديه بقوة لتتأكد من وجوده فى العلم و ليس مجرد أضعاث أحلام، ثم قالت:

- أنت تحبنى و أنا أحبك.. آه.. كنت أعتقد أن حبك ضاع إلى الأبد.

استبشر كل منهما خيرًا. تلاشى كل منهما فى عينيى الآخر. لا يوجد شىء يقينى فى هذا العالم سوى الحب و الاعتراف بالحب. اختفت كل آلام الليالى السابقة، تلاشت كل الحواجز التى تنتظرهما فى المستقبل. لم يعرف أى منهما كيف حدث هذا اللقاء دون تدبير أى منهما. تعانقا فى عفاف، اختلطت دموعهما، كاد يذوب شفقة عليها، و كادت هى تذوب من الأحزان الدفينة فى نفسها. حاولت الوقوف لكنها سقطت، لاتشعر بقدميها، خدرت السعادة كل حواسها، ثم قالت:

- تحقق أملى الوحيد.. كنت أتمنى أن أراك قبل أن أموت.

رفع رأسها برفق وهو يقول:

- لا أتمنى الموت، أنا بجوارك، أحبك.

ابتسمت فى إيمان و هى تقول:

- أستطيع الموت الآن طالما أنك تحبنى. أنا لا أخشى الموت. الموضوع بسيط جدًا، سأضع رأسى علي كتفك و أنام.. قل لى أنك تحبنى.

- أحبك الآن كما كنت أحبك بالأمس، و سأحبك غدًا. لا تشك لحظة فى هذا. سأحبك إلى الأبد.

- نعم سيظل حبنا إلى الأبد.

دارت برأسها تتأمل الحجرة حولها كأنها استيقظت فجأة، راحت تفكر بجدية وهى مذهولة من السعادة ثم سألت:

- إذا كنت تحبنى فلماذا تأخرت؟

- والداك أخبرانى أنك لا تحبيننى. فى هذه اللحظة أنا أيضًا تمنيت الموت.. و عندما علمت بمرضك قررت مهاجمة الدار مهما كانت الأبواب المغلقة فى وجهى.

- و أمى أخبرتنى أنك لا تحبنى، صدقتها.. ثم رأيتك بجوار الأنسة "كلارا" فاعتقدت أنك خضعت لإرادة السيد.

- لا. أنتظر الفرصة المناسبة. أعترف أننى أهابه و أرتجف أمامه.

مرت لحظة صمت. ضاق صدرها، أصبح وجهها جامدًا و هى تفكر فى غضب، ثم قالت:

- إذًا خدعانا. كذبا علينا ليفرقا بيننا. جعلانا نتعذب، يريدان موتنا. هذا شيء كريه. هذا يحلنا من وعودنا، نحن أحرار إذًا فى تقرير مصيرنا.

وقفت فجأة مستهينة بكل شيء. ذهبت عنها كل آلامها، عادت إليها كل قوتها فى صحوة حب جارفة. كانت تعتقد أن حلمها قد مات إلى الأبد، اكتشفت فجأة أنه مازال حيًا، الحلم يتحقق. الحب لا يعنى معصية الرب. استجمعت كل شجاعتها و ثورتها ثم قالت:

- إذًا نرحل.

راحت تتجول فى الحجرة بخفة و نشاط، أخرجت من الصوان معطف لتضعه على أكتافها و غطاء للرأس من الستان، هذا يكفى. بينما استنشق "فيليشيا" نفسًا عميقًا فى ارتياح و سعادة. كان يفكر فى هذا الهروب لكنه كان مترددًا فى عرض هذا الحل عليها، و ها هى التى تقترحه. هذا هو الحل الأخير و الوحيد.. يجب الهرب و الاختفاء، يجب الانتصار على كل الأعداء و تحطيم كل الحواجز، فقال فى حماس:

- نرحل فورًا يا روحى الغالية. هذا ما جئت من أجله، أعلم جيدًا المكان الذى سنأخذ منه العربة. قبل طلوع النهار سنكون بعيدًا، بعيدًا جدًا، و لن يستطيع أحد أن يفرق بيننا.

فتحت الخزانة ثم أغلقتها دون أن تأخذ منها شيئًا، كانت تتحرك فى نشوة عارمة، لا تصدق فرحتها. منذ أسابيع و هى تجاهد كثيرًا لطرده من مخيلتها، تحاول إقناع نفسها بأن الحياة ممكنة بدونه، فى بعض الأحيان تعتقد أنها نجحت فى ذلك، ثم تعود و تكتشف استحالة الحياة بدونه. لماذا كل هذه التعقيدات؟ طالما أنهما يتحابان فسيتزوجان، لن يستطيع أحد فصلهما أبدًا. سألت فى لهفة:

- ماذا آخذ معى؟.. آه.. كنت حمقاء ساذجة، صدقت كذبهما. كنت سأموت إن لم تأت إلىّ.. هل آخذ معى ملابس كثيرة؟ هذا ثوب ثقيل.. غرسا فى نفسى أفكار كثيرة.. وساوس مخيفة.. يوجد الخير و يوجد الشر.. أشياء يجب أن أعملها و أخرى لا يجب أن أعملها. أفكار معقدة تجعلنى بلهاء. يكذبان علىّ، لا يوجد إلا متعة الحياة بالحب. أنت الثروة، أنت الجمال و الشباب، أنت سيدى الغالى. سأهب لك نفسى تمامًا. سعادتى الوحيدة بجوارك، إفعل بى ما شئت.

ثارت فجأة على كل أفكارها المتوارثة. تسمع فى أذنيها الموسيقى و هى تزفها فى هذا الرحيل المفاجىء بصحبة ابن الأمير. سيجعلها ملكة على مملكة بعيدة عن هنا. ستكون جواره

لتختبىء فى أحضانه، سينعمان معًا بحياة سعيدة هانئة. ثم قالت فجأة:

- لن آخذ شيئًا، لا داعى لكل هذه الملابس، أليس كذلك؟

قال مزهوًا بنفسه و هو يقف بجوار الشرفة:

- نعم، لا داعى.. يجب الرحيل بسرعة.

- نعم، يجب الرحيل.

قبل أن تذهب معه التفتت تلقى نظرة أخيرة على حجرتها.. بدا لها الضوء الخافت ساحرًا، وقعت عيناها على قطعة الستان التى كانت تطرز عليها ورودها، مازالت هناك وردة لم تكتمل تناديها. بدت لها الحجرة بيضاء، الفراش أبيض، الحوائط بيضاء، الهواء أبيض. ارتجف بداخلها شىء ما جعلها تستند إلى ظهر المقعد، و سأل "فيليشيا" فى قلق:

- ماذا بك؟

لم تجب، أخذت نفسًا عميقًا بصعوبة بالغة. ارتجفت قدامها فجلست ثم قالت:

- لا تقلق، لا شىء، نرتاح دقيقة واحدة ثم نرحل.

راحت تتأمل الحجرة كأنها نسيت شيئًا، شيئًا لا تستطيع الإفصاح عنه. إنه الندم الذى بدأ خفيفًا ثم راح يكبر شيئًا فشيئًا إلى أن ضغط على صدرها. حاولت التغلب على هذا الشعور. ما الذى يجذبها إلى هذه الحجرة؟ هل اللون الأبيض الذى تراه الآن؟ دائمًا تحب اللون الأبيض. جلس "فيليشيا" تحت قدميها و هو يسأل:

- هل تشعرين بألم؟ ماذا أفعل لك للقضاء على هذا الألم؟ إن كنت تشعرين بالبرد من الممكن أن أدلك قدميك حتى تستطعين الجرى.

هزت رأسها قائلة:

- لا. لا. لا أشعر بالبرد. أستطيع المشى. ننتظر دقيقة واحدة فقط.

شعر "فيليشيا" بقيود خفية تشل حركتها، تكبلها فى هذا المكان، لو مرت لحظات أخرى سيكون من المستحيل انتزاعها من هنا. فكر كثيرًا فى مواجهة والده، كيف سيواجهه وهو ممزقٌ ضعيفٌ عاجزٌ عن التأثير على محبوبته؟.. قال محاولًا الضغط عليها.

- هيا، الطرق معتمة الآن، سنرحل فى العربة أثناء الليل، سيختفى كل منا داخل الآخر مثل العصافير فى أعشاشها. و بعد أن يسطع النهار سنكمل رحلتنا إلى البعيد، إلى أن نصل إلى مدينة لا يعرفنا فيها أحد. سنعيش هناك سعداء. سنعيش فى حديقة عامة كبيرة ليحب كل منا الآخر دون رقيب. سنجد هناك أزهارًا جميلة وأشجارًا ضخمة و فاكهة أشهى من العسل. سنعيش هناك على الحب فقط يا روحى الغالية.

ارتجفت عندما شعرت بحبه الملتهب، خارت قواها و هى تستمع إلى وعوده الحالمة، فقالت:

- سنرحل بعد قليل.

- و إذا تعبنا من الرحيل سنعود إلى هنا. سنقوم بترميم قصر "هوت كور" مهما كانت التكلفة. سنعيش بين برج القديس "دافيد" و برج القديس "شارلمان". سنعيد إلى المكان أبهته وعظمته مثلما كان فى الماضى، و سنعيش أيضًا فى الماضى بعراقته و أصالته، أنا الأمير و أنت الأميرة. حولنا العبيد، الجنود المسلحة تحرسنا. سأحيط قصرنا بسور حجرى سمكه خمسة عشر مترًا لنعيش معزولين عن العالم. نعيش أسطورة حبنا. و عندما نعود من رحلة الصيد بعد غروب الشمس سنجد المدينة كلها فى استقبالنا راكعة. فى المساء سيأتى الملوك و الأمراء إلى مائدتنا. و عندما يحين موعد النوم سيختفى كل منا فى حضن الآخر بينما ستصدح الموسيقى من مكان بعيد.

اختفت الابتسامة من شفتيها، شعر بقلقها فقال مشجعًا:

- هيا، يجب أن تكونى لى. يجب أن نعمل معًا من أجل سعادتنا.

هبت واقفة و هى تقول في ثورة:

- لا، لا أستطيع. لا أستطيع.

كانت خائفة مترددة فقالت:

- كن لطيفًا معى، أرجوك لا تضغط علىّ. أريد طاعتك حتى أثبت لك حبى. أريد الذهاب معك إلى العالم البعيد. أريد الحياة جوارك فى قصرك الذى تحلم به. تفاصيل الهرب التى تقصها على الآن، كثيرًا ما حلمت بها، لكن الموضوع برمته يبدو لى الآن مستحيلًا. كما لو أن هذه الشرفة قد تحولت إلى سدًا منيعًا لا أستطيع عبوره.

حاول "فيليشيا" الحديث لكنها أخرسته ثم قالت:

- لا تقل شيئًا. لا يصح أن تتحدث وحدك. حديثك يسحرنى، يسلبنى الإرادة، لكن الخوف يتملكنى، يثلج صدرى. ربى، ماذا أفعل؟ حديثك هذا يخيفنى، يباعد بينى و بينك. لا تقل شيئًا آخر.. يجب أن ترحل.. انتظر... انتظر لحظة.

وقف صامتًا فى مكانه بينما راحت هى تتجول فى الحجرة محاولة إعادة ترتيب أفكارها، ثم قالت:

- كنت أعتقد أننى سأنجح فى التغلب علي حبك. و عندما رأيتك تحت أقدامى خفق قلبى بشدة. أتمنى أن أتبعك مثل جارية مطيعة. إذا كنت أحبك فلماذا أخاف منك؟ لا أعرف. ما الذى يمنعنى من هجر هذه الحجرة كما لو أن هناك أياد خفية تشدنى من شعرى لأمكث هنا؟

كانت تقف بجوار فراشها. تحركت إلى الصوان ثم راحت تدور حول كل قطع الأثاث فى الحجرة. من المؤكد أن هناك علاقة خفية تربطها بهذا المكان، خاصة الحوائط البيضاء و الدعامات الخشبية فى السقف البيضاء اللون. الأبيض يغلفها

بثوب الطهارة، لم يغلفها هذا الثوب إلا بعد دموع كثيرة حارة، ذاب قلبها رقة عندما رأت قطعة الستان التى كانت تطرز عليها زهورها، الزهور تناديها. تذكرت سنوات العمل الطويلة. سنوات طويلة من الحكمة و السعادة و الأمان. تعلمت فى هذه السنوات معنى كلمة الشرف الذى يتنافى مع أى وقوع فى الخطأ مهما كان بسيطًا. شعر "فيليشيا" بارتباطها الوثيق بالمكان فقال يحثها:

- هيا، الوقت يمر بسرعة.

صرخت قائلة:

- تأخرنا بالفعل... ترى جيدًا أنى لا أستطيع اتباعك.. أحبك، و أتمنى الذهاب معك. لكن هناك شىء بداخلى قد تغير، ألا تسمع المكان و هو يصرخ و يناديني؟

دون نقاش، حاول سحبها من يدها مثلما نفعل مع الطفل العنيد، هربت من بين يديه و ذهبت جوار الشرفة و هى تقول:

- لا، ليس الآن. قد نرحل فى المرة القادمة. إنها الثورة الأخيرة. أحاول قهر ضعفى و خضوعى. عندما كنت أقابلك كنت ألوم نفسى بشدة، أشعر بذنب كبير، و بدأ هذا الشعور يتلاشى قليلًا، أتركنى قليلًا حتى أستطيع الانتصار على ضعفى.

تراجعت خطوة للخلف فأصبحت فى الشرفة، أكملت:

- لن تستطيع إجبارى على الخروج من هنا... يجب أن تعلم أن هناك عالم خاص يحيط بى. الأشياء تحدثنى. لم أسمع صوتهم بوضوح مثلما أسمعه الآن. صديقتى الكاتدرائية تخبرنى أن حياتنا ستفسد إذا وهبت لك نفسى دون موافقة والدك. ربما يأتى هذا الصوت من المجرى المائى الصافى فقد تعلمت منه الصفاء. الأشجار تحدثنى، و أحيانًا يأتى الصوت من الأفق البعيد. الكاتدرائية تخبرنى الآن أن الموت نفسه لا يستطيع قهر الأمل، الحب يبقى و يدوم إذا كان شريفًا عفيفًا. الهواء نفسه يحدثنى، ألا تسمع همس الأرواح من حولى. القديسات يحطن بى، اسمع، اسمع!..

ابتسمت و هى ترفع يديها جوار أذنها تتنصت بحس مرهف. كل القديسات خرجوا من الأساطير الذهبية ليحطن بها من كل جانب، النور يشع من القديسات الطاهرات، كلهن توفين طاهرات عفيفات. قال "فيليشيا" فى ضيق:

- أنا وحدى بجوارك يا "أنجيليك"، ترفضينى بسبب الأوهام..

همست:

- أوهام!

- نعم، أوهام، لا وجود لها إلا فى رأسك فقط. لو أخرجتى هذه الهواجس من رأسك سيصمتن.

التمعت عيناها ببريق خاطف وهى تقول:

- إنهن يتحدثن إلىّ، يمنحننى القوة و الشجاعة لأقاومك. يمنحننى قوة الفضيلة. إذا كان ما يحيط بى أوهام فإن هذه الأوهام هى التى تنقذنى دائمًا. سيأخذنى هذا الحلم طاهرة عفيفة. يجب أن تطيع الرب مثلى، لن أتبعك.

عاد إليها ضعفها، ضاق صدرها لكن إرادتها لا تُقهر. قال "فيليشيا:

- خدعونا، كذبوا..

- أخطاء الغير لا تتيح لنا الوقوع فى الخطأ.

- إذًا أنت لا تحبيننى.

- أحبك، لا أقاومك إلا من أجل حبنا و سعادتنا. أحصل على موافقة والدك ثم أتبعك.

- لا يستطيع أحد إقناع أبى. هذا مؤكد. لو أمرنى بالزواج من "كلارا" هل أطيعه؟

ارتجفت فى ألم، لا تسطيع تحمل هذا أبدًا ثم قالت:

- هذا كثير.. أرجوك لا تكن قاسيًا. لماذا أتيت؟ كنت أعتزل العالم أتجرع ألامى وحدى معتقدة إنك لا تحبنى. و ها

أنت مازلت تحبنى و اللوعة لا تنتهى أبدًا. لماذا تريدون لى الحياة إذًا؟

حاول "فيليشيا" استغلال ضعفها لإجبارها على الهرب فعاد يقول:

- إذا أمرنى والدى بالزواج منها..

توترت أعصابها بشدة، ذهبت جوار المنضدة لتفتح له الشرفة لينصرف منها ثم قالت:

- الطاعة واجبة.

قال فى غضب:

- ستموتين من الألم.

- بدأ الموت بالفعل.

وقف برهة يتأملها، وجهها المنقبض يشع نورًا صافيًا، ضعيفة هشة مثل ريشة فى مهب الريح، بدا ثابتًا رابط الجأش ثم انصرف.

بعد انصرافه استندت إلى ظهر المقعد و هى تمد له يدها. شعرت بآلام غير محتملة تسرى فى جسدها. انهمر العرق من وجهها الشاحب بغزارة. إنها النهاية. لن تراه أبدًا بعد اليوم. ارتجفت قدماها، استندت إلى قطع الأثاث إلى أن وصلت إلى فراشها بعد مجهود كبير. ألقت بنفسها فى الفراش و هى تشعر بالنصر. اختفى الألم تمامًا. و فى الغد أصبحت نصف ميتة و وجهها يشع نورًا صافيًا...

(13)

أصبحت "أنجيليك" على وشك الموت. الساعة تقترب من العاشرة صباحًا. كان يومًا ساطعًا من أيام الشتاء الأخيرة. السماء صافية، الشمس تملأ الكون بضيائها، بينما تستلقى "أنجيليك" على فراشها الكبير تحت الغطاء الوردى دون أية حركة، مغمضة العينين، فاقدة الوعى منذ الأمس. وجهها شاحبًا ذابلًا محاطًا بشعرها الذهبى. لولا التنفس الضعيف الذى يصدر من شفتيها لأعتقد الجميع أنها ماتت.

بالأمس اعترفت بخطاياها استعدادًا للموت. القس "كورونيل" أتى لها بالطعام المقدس فى الظهيرة. و فى المساء شعرت ببرودة الموت تسرى فى جسدها شيئًا فشيئًا. شعرت بحاجتها إلى المسحة الأخيرة المقدسة، الطب الدينى لعلاج النفس و الجسد معًا. و لذلك أخبرت "هيبرتين" – قبل أن تفقد الوعى – بحاجتها إلى الزيت المقدس. هتفت "هيبرتين" فى جزع:

- حالًا! لكن من المستحيل أن نأتى به أثناء الليل، يجب الانتظار حتى الصباح. سنبلغ القس الحكيم و سيأتى به فورًا.

فى الصباح الباكر بدأ "هيبر" و زوجته فى إعداد كل شىء. نظما الحجرة بعناية بينما كان ضوء الفجر الأبيض يسطع فى الشرفة. فرشا على المنضدة مفرشًا أبيض، أتيا بالشمعدان من الصالون الذى كان عبارة عن صليب يتوسط شمعتين، كما كان هناك الماء المبارك و الرشاشة، إبريق الماء و الطبق الخاص به و المناشف، بالإضافة إلى طبقين من الخزف فى أحدهما قطع من القطن و الآخر قطع الورق الأبيض. أحضرا الورد من "بومون" المدينة لعدم وجوده فى مكان قريب، ورود بيضاء كبيرة لتزيين المنضدة. فى هذا الجو الذى يشع بهجة كانت "أنجيليك" مسجاة فى فراشها مغمضة العينين تتنفس بصعوبة شديدة.

عندما أتى الطبيب لزيارتها فى الصباح أخبرهم أنها ستموت اليوم، ربما ستموت قبل أن تستعيد وعيها. بدأ الوالدان يترقبان الموت بين لحظة و أخرى، سيحدث ما يريده الله رغم دموعهما و آلامهما. لا شك أنهما يتمنيان لها الموت. طفلة ميتة أفضل كثيرًا من طفلة مُتمردة. لكن ليس الأمر بإرادتهما، إرادة الله فوق إرادة الجميع، ليس بوسعهما سوى الخضوع و الاستسلام لإرادة الله. لم يشعر أى منهما بالندم، لكن يشعر كل منهما بالألم. فقد قاما بتربيتها و تهذيبها، جعلت لحياتهما معنًا و هدفًا. هل كُتبت عليهما الوحدة مرة أخرة فى أيامهما الأخيرة؟..

فتح "هيبر" الشرفة فدخلت أشعة الشمس تنعش الورود، ثم صمت ثقيل مهيب. بعد برهة حدثت ضجة فى الكاتدرائية، دق الجرس و هو يهز أحجار الدار العتيقة. بلا شك خرج الآن القس "كورونيل" من الكنيسة حاملًا الزيت المقدس. هبطت "هيبرتين" لاستقباله فى الردهة بينما انتظر "هيبر" فى الحجرة، سمع وقع الأقدام على السلم الحلزونى الضيق، و عندما رأى القادم ارتجف خاشعًا ثم سقط على ركبتيه.

لم يكن الكاهن المُنتظر، بل السيد حاملًا الزيت الذى باركه بنفسه فى وعاء من الفضة يتبعه القس "كورونيل" يحمل الصليب فى يد و فى اليد الأخرى كتاب الطقوس. وقف السيد برهة يلقى صلاة سريعة و القس يردد خلفه، و جلست "هيبرتين" جوار زوجها يصليان بكل وجدانهما.

فى اليوم التالى، حدث حوارٌ عنيفٌ بين "فيليشيا" و والده. دفع "فيليشيا" كل الأبواب بقوة إلى أن التقاه على باب محرابه الخاص، كان السيد خارجًا لتوه من ليلة طويلة يصلى و يبكى من ألام الماضى. التقى الابن الثائر بالأب العنيد، كلاهما من أسرة واحدة متسلطة عنيفة. استمع الأب فى هدوء، اشتعلت وجنتاه من الغضب فى صمت و هو ينظر إلى ابنه فى تعال، بينما كان وجه الابن مشتعلًا وهو يبوح بكل ما فى قلبه، ارتفع صوته شيئًا فشيئًا

دون أن يشعر. "أنجيليك" تحتضر، فى حاجة إلى رحمته. شرح له كيف رفضت الهرب معه فى كبرياء و حكمة مثل القديسات، أليس هذا قتلًا متعمدًا لها؟ هل نعاقبها على أخلاقها الرفيعة و طاعتها لوالديها و للسيد؟ رفضت المجد و الشرف طمعًا فى رضى الرب. و هو أيضًا يحبها و لا يستطيع الحياة بدونها. استمع الأب حتى النهاية ثم صرخ قائلًا: مستحيل!

ثارت الدماء فى وجه "فيليشيا" و بدأ يهذى. بدأ يتحدث عن والدته مدعيًا أنها بُعثت فيه لتمنحه القدرة على الحب، إنها تبحث عن الاستمرار فى الوجود من خلال أحفادها، و هو يمنع وجود هؤلاء الأحفاد بمنعه من الزواج ممن يحب. اتهم أبيه بعدم حب أمه، بل يكرهها، و ربما يكون سعيدًا لموتها. و لذلك يحارب المحبين، يتلذذ بتعذيبهم، اتهم والده بأنه يجهل كل شىء فى الحياة، لا يدرك شيئًا سوى الطقوس الدينية الجامدة. ثم صرح بأنه يريد الزواج بمن أحبها و ليس الزواج بالكنيسة مثله. راح يصرخ و يهدد أمام أبيه الصامت الجامد، و فى النهاية فر هاربًا من أمامه.

شعر السيد بسكينًا حادًا ينغرس فى صدره. بعد انصراف ابنه دار حول نفسه فى قلق ثم سقط على ركبتيه يصلى. ما كل هذا البؤس؟ لا أحد يستطيع قهر ضعف المحبين. مازالت زوجته تعيش بداخله، مازال يحبها مثلما كان يحبها فى اليوم الأول، ما زال يشعر بنفس الرجفة التى شعرها عندما قبل قدميها البيضاء أول مرة. يحب ابنه لأنه قطعة من هذه المرأة، إمتدادًا لها. و يحب هذه العاملة البسيطة لأن ابنه يحبها. ثلاثتهم يتعذب طول الليل و النهار. عندما أتت له "أنجيليك" فى الكاتدرائية لم يبد لها أى تعاطف، لكنها استطاعت فى هذا اليوم النفاذ إلى قلبه ببساطتها و صدقها. انصرفت من أمامه طاهرة بريئة، لم تحاول أبدًا الثورة أو التمرد. لم يندم فى حياته أبدًا مثلما يندم الآن لطردها و تحطيم قلبها الغض. عندما كان ابنه ثائرًا أمامه لمح خلفه وجه المرأتين،

وجه الزوجة الميتة التى مازال يعشقها حتى الآن، و وجه الفتاة التى ستموت من أجل ابنه. بعد الإنتهاء من الصلاة أصبح وجهه شاحبًا جامدًا مثل الشمع، قلبه ممزقًا، لكنه مازال مصرًا على كلمته الأولى: مستحيل!

ظل "فليشيا" رابضًا أمام الدار لمدة يومين، يتابع الأخبار فى ألم و حسرة. و فى ذات صباح خرجت "هيبرتين" تجرى إلى الكنيسة طلبًا للزيت المقدس. أدرك أنها ستموت اليوم. جرى إلى القس "كورونيل" فلم يجده. بحث عنه فى كل مكان دون جدوى. جرى إلى المطرانية، دفع الأبواب بقوة. ارتجف الأب من ثورة ابنه العارمة، استمع له فى هدوء. أدرك أن "أنجيليك" تحتضر و تحتاج إلى المسحة الأخيرة قبل الموت. بدا فى عينيه بريق خاطف كأن هناك صوتًا ما يحدثه، ثم أشار لابنه أن يسير أمامه ثم اتبعه و هو يقول:

- إذا أراد الله فأنا أريد.

ارتجف "فيليشيا" عندما رأى أباه يطاوعه، يبدو أن الأب يحاول استعادة معجزات آبائه و أجداده. اصطحب الأب القس "كورونيل" حاملًا الزيت المقدس بينما "فيليشيا" يسير خلفهما باكيًا، لم يستطع دخول حجرة حبيبته المحتضرة. أقام السيد صلاة سريعة على الباب ثم دخل. وضع على المنضدة البيضاء الزيت المقدس، رسم الصليب فى الهواء ليباركه، ثم أخذ الصليب من يد القس "كورونيل" و اتجه إلى المريضة لتقبله، إلا أن "أنجيليك" مازالت مغمضة العينين فاقدة الوعى، يداها متحجرتان كأنها جثة فى قبرها منذ زمن طويل. تأملها برهة، لا يبدو عليها أى شىء من مظاهر الحياة سوى التنفس الضعيف. وضع الصليب على شفتيها و راح يرقب رد فعلها، لا تتحرك أبدًا و بالرغم من ذلك مازالت على قيد الحياة، قد يعنى هذا أنه مازال هناك وقتًا كافيًا لكى تعترف بكل ذنوبها قبل الموت.

أخذ السيد جرة الماء المقدس و الرشاشة من القس و راح يرش المريضة و هو يقرأ صلاته باللغة اللاتينية.

أنعشت قطرات المياه الفراش، تدفقت فى الهواء رائحة عطرة. مسح أصابعها و وجنتيها، و راحت القطرات تتحرك على الجسد المريض بيسر و سهولة كأنها تتحرك على رخام أملس. التفت السيد إلى الحاضرين و راح يرشهم بالماء المقدس. انحنى "هيبر" و بجواره زوجته فى إيمان عميق لتلقى المباركة. ثم راح السيد يبارك الحجرة كلها، قطع الأثاث و الحوائط، و عندما اقترب من الباب رأى ابنه أمامه مرتجفًا باكيًا. ببطء شديد بارك ابنه ثلاث مرات بالمياه المقدسة. نفذت الرائحة العطرة فى المكان تطرد أية أفكار خبيثة من الرءوس. و فى هذه اللحظة سقطت أشعة الشمس على الفراش، حدث اضطراب غريب فى الذرات كأن الشمس أرادت غسل الجسد المحتضر البارد.

جلس السيد بجوار المنضدة و راح يتلو صلاته ببطء شديد. يشعر بملك الموت يختبىء هنا، ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض. الصغيرة تتلاشى فى صمت و هدوء، رغم أنه واثقٌ أنها لا تسمعه إلا أنه قال لها:

- ألا يوجد ذنب يقلقك لتعترفى به؟ إنقذى نفسك يا بنيتى.

انتظر الإجابة دون جدوى، ثم أكمل:

- اطلبى من الله الصفح و الغفران من أعماقك، الاعتراف بالذنب سيعيد إليك قوتك و صحتك...

أكمل نصائحه إلى أخرها كما يجب أن يفعل، بينما الصغيرة تتنفس بصعوبة شديدة دون أن يتحرك لها جفن، فأمر قائلًا:

- نتلوا صلاتنا.

تلا صلاته و القس "كورونيل" يردد خلفه "آمين". مازال "فيليشيا" يبكى على الباب، منعه البكاء من المشاركة فى الصلاة، بينما صلى "هيبر" و زوجته بإيمان عميق. الكلمات اللاتينية

تنساب فى الحجرة تستدعى القديسين و القديسات لإنقاذ البشرية المعذبة. بعد الصلاة أصبح الصمت كثيفًا عميقًا. غسل السيد يديه بمساعدة القس "كورونيل". تناول الزيت المقدس و كشف الغطاء عن المحتضرة. حان موعد غسل كل الذنوب القديمة، الذنوب التى لم يسامحها الرب من خلال الاعترافات القديمة، إما لأن الإنسان نسى الاعترف بها من قبل أو لجهل الإنسان بهذه الذنوب، لكن هذه الصغيرة لم ترتكب ذنبًا بعد. إنها لم تقرأ فى حياتها سوى "الأساطير الذهبية"، لا تعلم شيئًا من هذا العالم سوى الكاتدرائية. بدأ السيد فى تطهير العينين، الأنف، الأذن، اليدين ثم الفم. و هكذا أصبح جسدها الأبيض يشع نورًا طاهرًا.

غسل السيد يديه و هو يردد الصلاة الأخيرة، بالرغم من ذلك ما زالت الصغيرة متحجرة مغمضة العينين، المعجزة لا تتحقق. "هيبر" و زوجته يرقبان ما يحدث فى ذهول، ينتظران البعث من خلال الشرفة. كف "فيليشيا" عن البكاء و راح يتضرع إلى الله فى لهفة و قلق.

عاد السيد يقترب من الفراش و بجواره القس "كورونيل" يحمل شمعة مشتعلة. السيد مصرًا على استكمال طقوسه فى عناد و ليفعل الله ما يريد بعد ذلك. و عندما حاول وضع الشمعة بين أصابعها سقطت يدها على صدرها.

ارتجف السيد فى ألم. لقد أحبها منذ أن ركعت تحت أقدامه فى الكنيسة تشكو له عذابها و آلامها. منذ هذه اللحظة أدرك مدى وفائها و إخلاصها، شعر بصدق مشاعرها و نبلها. تذكر فى هذه اللحظة معجزات آبائه و أجداده. كان الله يستجيب لهم لطهارتهم و إخلاصهم. شعر فى هذه اللحظة أن الله يطالبه بالتعامل مع ابنه كأب و ليس كمطران فقط، و الأب يجب أن يسعى لسعادة أبنائه. انحنى على الفتاة و قبلها من فمها ثم قال:

- إذا اراد الله فانا أريد.

فتحت "أنجيليك" عينيها فى الحال، لم يكن فى نظراتها أية دهشة، شعرت بأن كل أحلامها قد تحققت، ها هو السيد بجوارها ليخطبها لابنه، جلست وسط فراشها بينما السيد يتمتم بحمد الله. قبضت على الشمعة المشتعلة بقوة كأن الشمعة هى التى ستنير لها حياتها.

دوت الصرخات فى الحجرة. وقف "فيليشيا" مذهولًا، يشعر بجسده خفيفًا من النشوة و الفرحة، كذلك "هيبر" و زوجته مذهولان سعيدان، بدا لهم الفراش كأنه يشع نورًا، انتشرت رائحة الزنابق العطرة. وجه "أنجيليك" الصبوح محاط بهالة من الضوء الصافى. اقترب "فيليشيا" من الفراش و هو يقول:

- روحى الغالية. أنت تعرفيننى، أليس كذلك؟.. أنت حية!.. أنا لك.. وافق أبى طالما أن الله يريد .

غضت من بصرها و هى تبتسم فى حياء:

- أعرف ذلك.. كنت واثقة أن كل أحلامى ستتحقق.

وضع السيد الصليب على فمها فقبلته، ثم التفت يبارك كل من فى الحجرة و هم يبكون. قبض "فيليشيا" على يد محبوبته، و قبض باليد الأخرى على الشمعة المشتعلة.

(14)

تم الاتفاق على الأيام الأولى من مارس لإتمام الزواج لكن "أنجيليك" مازالت ضعيفة جدًا رغم البهجة التى تشع من عينيها. بعد أن ردت إليها الروح على يد السيد بأسبوع حاولت النزول إلى المشغل لإتمام العمل الضخم الذى سيزين مقعده. قالت فى نفسها: هذا آخر عمل أقوم به، و بعد ذلك حياة الترف و البزخ. لكنها لم تستطع العمل لضعف صحتها، فعادت إلى حجرتها مرة أخرى. قضت ساعات طويلة بمفردها تضحك فى سعادة، واثقة تمامًا فى تأثير الزيت المقدس رغم أن العافية لم تعد إليها حتى الآن. كان عليها أن تستريح فترة طويلة بعد أن تنتقل بجهد كبير من الفراش إلى الشرفة أو العكس. و لذلك قرروا تأجيل الزواج حتى نهاية مارس، لابد أنها ستستعيد صحتها سريعًا.

بعد الظهر، يأتى "فيليشيا" لزيارتها كل يوم. يصعد إلى حجرتها برفقة والديها. يمضون أوقاتًا سعيدة هانئة. عادة تبدأ "أنجيليك" بالحديث، تجلس فى فراشها تضحك و هى تحدثهم عن سعادتها، تحدثهم عن أحلامها الكبيرة، عن الرحلات التى تتمنى القيام بها و ترميم قصر "هوت كور". فى هذه اللحظات يعتقد الجميع أنها أصبحت فى تمام الصحة و العافية. و بعد انصرافهم تختفى ضحكاتها، و تعود الهمسات تطاردها مرة أخرة. أحيانًا تأتى الهمسات من باطن الأرض، أحيانًا من حولها، و أحيانًا من داخلها. واثقة تمامًا من أن المعجزة ستحدث و تحقق كل أحلامها، ألم تكن على وشك الموت و تم إنقاذها بأعجوبة؟ بالرغم من الأمل إلا أن الشجن يهاجمها. تشعر أن الأقدار تخبئ لها آلاماً جديدة، الحياة ليست وردية تمامًا. الشجن يفقدها الإحساس بجسدها، تشعر بنفسها طاهرة نقية خفيفة كأنها تسبح فى الهواء،

و لا تعرف من أين يأتى هذا الشجن. عندما تسمع وقع خطوات أحد على السلم تشعر بالضيق، تتمنى العزلة و الصمت، لكن ما أن ترى أحدهم حتى تنهمك فى الحديث بمرح و سرور كأنها فى أتم صحة و أفضل حال.

في نهاية مارس، رغم سعادتها إلا أنها فقدت الوعى مرتين. حدث ذلك و هى بمفردها فى الحجرة، لم تخبر أحدًا بذلك. و فى ذات اليوم سقطت جوار الفراش من شدة الضعف، فى هذه اللحظة كان "هيبر" صاعدًا إليها ليقدم لها كوب الحليب. ضحكت فى ارتباك ثم إدعت أنها تبحث عن إبرة ضائعة منها. و فى اليوم التالى أصبحت فى قمة نشاطها، أخبرتهم بأنها فوجئت باقتراب موعد الزواج، ثم اقترحت التأجيل حتى منتصف أبريل. صرخ الجميع فى دهشة، يبدو أنها لم تسترد عافيتها بعد، مازالت هزيلة شاحبة، لماذا لا ننتظر قليلًا، فقالت فى لهفة: بل أريد الزواج فورًا.. فورًا..

اندهشت "هيبرتين" من هذا التردد، تأملتها بنظرات فاحصة فأدركت أن المرض مازال كامنًا بداخلها و هى تحاول جاهدة مداراته عن الجميع. بينما "هيبر" و "فيليشيا" لم يشعر أى منهما بأى شىء، إنها تتحرك أمامهما بخفة و نشاط، اندهشا لهذا التأجيل المفاجئ. لكن تم التأجيل بعد أن حضر السيد لزيارتها فى المساء، لقد شرحت له رأيها بينما كان هو يرميها بنظرات ثاقبة ثابتة فى عينيها. شعر من خلال عينيها ما لا تستطيع البوح به، و لذلك قرر التأجيل حتى منتصف أبريل.

بدأ الاستعداد للزواج. بالرغم من وصاية "هيبر" الكاملة إلا أنه كان يجب الحصول على موافقة مدير الملجأ الذى كانت به و قاضى الأحوال المدنية حتى يصبح الزواج قانونيًا و شرعيًا. وقع كل منهما فى الدفتر الخاص بها. بعد هذه التوقيعات قدمت "أنجيليك" الدفتر لخطيبها. شعرت أنه يجب عليها أن تكون صادقة و صريحة معه. يجب أن يعلم أصلها الوضيع الذى انتشلها

منه. تصفح "فيليشيا" الدفتر بقلب خافق شفقة على معاناتها الطويلة، ثم طفرت الدموع من عينيه سعيدًا بسذاجتها و براءتها.

شغلت الاستعدادات الضاحية بأكملها لمدة أسبوعين. الإستعدادات تتم فى "بومون" المدينة و "بومون" الكنيسة. عشرين عاملًا يعملون علي هيئة مجموعات. ثلاثة منهم يعملون فى ثوب العرس. تكلف الكثير، مصنوع من الدانتيل، المخمل، الستان و الحرير، مزين بالأحجار الكريمة. لكن الهبات هى التى أثارت الناس أكثر من أى شيء .

أرادت "أنجيليك" أن تهب الفقراء بسخاء تحقيقًا لأحلامها. رصد السيد مبلغًا ضخمًا لتهب إلى من تشاء. جلست فى حجرتها البسيطة تضحك و هى تسمع قائمة بأسماء الفقراء و المحتاجين من القس "كورونيل". وهبت الكثير لمن تعرفهم فى البداية، الأب "ماسكار" أصبح ثريًا، أسرة "لا مبالوز" تتزين بالملابس الجديدة، الأم "جابير" شفيت بقوة المال. تدفق بريق الذهب يشع تحت أشعة الشمس الدافئة و "أنجيليك" تشعر بالفخر و النشوة.

كان "فيليشيا" يعلم بخبرته فندقًا عتيقًا فخمًا خلف المطرانية، استأجره لإقامة الحفل، و راح يصف لخطيبته الفراش الوثير و الصالونات الراقية، السجاد هناك عبارة عن تحفًا فنية رائعة، لا يذهب إلى هذا الفندق إلا علية القوم للإستجمام. كان يصف لها الكوشة الرائعة التى تمت هناك و العربة تنتظر فى الخارج لتوصيلها. لكنها رفضت بشدة، كانت لا تريد الدخول إلى هذا المكان إلا يوم العرس فقط لتدخله ملكة متوجة قادمة من البلاد الأسطورية البعيدة، كما أنها كانت لا تريد أن تنشغل بأى شيء سوى إعداد نفسها للزواج، إنه يفعل كل ما يستطيع من أجل إسعادها فلماذا تشغل بالها، حتى ثوب الزفاف لا تتعجل رؤيته، يكفى جدًا أن تُفاجأ بروعته و أناقته صباح يوم الزواج.

فى هذا الصباح، استيقظت "أنجيليك" قبل الجميع. شعرت بالوهن يسرى فى جسدها، حاولت الوقوف لكن قدميها التوت تحت جسدها الهزيل، لم تستطع مدارة ضعفها مثلما كانت تفعل طوال الأسبوعين الماضيين، صرخت رغمًا عنها، و عندما رأت "هيبرتين" أمامها مبتهجة هبت واقفة فجأة. يبدو أن الملائكة التى تحيطها رفعتها. عاونتها الأم على ارتداء ثيابها، شعرت بضعفها و خفة وزنها فقالت مازحة: يجب ألا تتحركى كثيرًا حتى لا تطيرى فى الهواء. و فى أثناء تزيين العروس ارتجفت دار "هيبر" تحت رنين أجراس الكاتدرائية الضخمة، بينما راح رجال الكنيسة يروحون و يجيئون فى كل اتجاه استعدادًا لمراسم الحفل.

الأجراس تدق، أشعة الشمس صافية دافئة، استيقظت المدينة مبكرًا، الكل سعيد بزواج المُطرزة الصغيرة الفقيرة، الكل يحبها و يفرح لفرحها. بدأ الناس يتوافدون فى جماعات غفيرة إلى الكاتدرائية. امتلأت الحديقة عن آخرها، بدت النقوش الرومانية كأنها تضحك فى سعادة، الأجراس فى الأبراج تؤكد للصغيرة تحقيق المعجزة التى طالما حلمت بها. أزهار من جميع الألوان و جميع الأنواع تزين الجدران و الأبراج فى انتظار العروس الجميلة.

فى العاشرة صباحًا، بدأ صوت الأورغن يصدح فى الكاتدرائية، دخلت "أنجيليك" بصحبة "فيليشيا" بين الجموع المحتشدة متجهان إلى المذبح. إشرأبت الأعناق فى إعجاب و انبهار. "فيليشيا" جادًا مزهوًا بنفسه، طافحًا بالصحة و الشباب، ممشوق القوام فى ثيابه السوداء الفاخرة، جواره "أنجيليك" تخطف القلوب بسحرها الغامض. انبهر الجميع بثوبها الأبيض المصنوع من أفخر أنواع القماش المطرز بالأحجار الكريمة و الأزهار المختلفة. بدت فى ثوبها كأنها ملاك برىء لا ينقصها سوى جناحين، أو قديسة طاهرة مثل تلك المرسومات على نوافذ الأبراج.

مقعدان وثيران من المخمل القرمزى فى انتظار العروسان بينما الأورغن يرحب بهما. ركع "هيبر" و زوجته فى المكان المخصص لأهل العروس، سعادتهما غامرة. بالأمس عندما بدأت "هيبرتين" تفكر فى الفراغ الذى سيحدث فى الدار بعد رحيل "أنجيليك"، ذهبت إلى مقبرة الأم الميتة تطلب الصفح و العفو، و فجأة شعرت بوخزة خفيفة فى صدرها، أدركت فى هذه اللحظة أن الأم سامحتها بعد ثلاثين عامًا، لكن ترى هل "أنجيليك" هى العوض عن الابن المفقود؟.. لقياها فى ليلة عاصفة، تعهداها بالرعاية و الإهتمام لمدة سبع سنوات، و ها هى تتزوج من أمير حقيقى. لا يوجد عوض أفضل من هذا أبدًا.

فى مواجهة أسرة "هيبر" يجلس السيد على عرشه مهيبًا عظيمًا، يرتدى ثيابًا فاخرة، مزهوًا بنفسه و بابنه الوحيد و أسرته العريقة. مقعده مزين بالتحفة الرائعة التى طرزتها "أنجيليك" بيدها.

هكذا بدأ الإحتفال فى حضور الكهنة الذين أتوا من أماكن كثيرة لمجاملة مطرانهم. كانت الشموع المشتعلة أكثر من نجوم السماء أثناء الصيف، الشعلة تتوسط المذبح، تبدو الكاتدرائية العتيقة كأنها استعادت شبابها و أبهتها و عظمتها فى هذا اليوم.

كانت "أنجيليك" ترغب فى أن يتم زواجها عن طريق القس الطيب "كورونيل". و عندما رأته قادمًا نحوها يتزين بكتافته البيضاء و على جانبيه مساعديه ابتسمت. أخيرًا سيتحقق الحلم، ستتزوج الثروة، الشباب و النفوذ. الكنيسة كلها تندمج فى التراتيل مع أنغام الأورغن، الكنيسة كلها تتلألأ بأضواء الشموع الكثيرة، لم تجتمع مثل هذه الحشود الغفيرة فى الكنيسة أبدًا من قبل، و لذلك ابتسمت، لكنها ابتسامة استهانة و استخفاف بالدنيا الفانية.

عندما دخلت إلى الكنيسة ألقت نظرة سريعة على محراب السيد حيث لوحتا "لورات" و"بالين"، العاشقان اللذان خطفهما

الموت و هما مفمعان بالصحة و الشباب. لا شك أنها انتصرت الآن، عاونتها الملائكة على تحقيق كل أحلامها، لكنها لا تشعر بنشوة الظفر أبدًا. تشعر بنفسها تذوب و تتلاشى فى صديقتها العزيزة الكاتدرائية.

ألقى القس "كورونيل" النصيحة بصوت هادىء و هو واقفٌ على المذبح. تحدث عن زواج المسيح بالكنيسة، تحدث عن المستقبل، عن الإيمان الذى يجب أن يلازم الزوجان طوال حياتهما، عن الأطفال الذين يجب تربيتهم تربية مسيحية جيدة. و عند ذكر الأطفال ابتسمت "أنجيليك" مرة أخرى بينما كان "فيليشيا" يرتجف من فرط السعادة و النشوة. و عندما سألها القس عن رأيها قالت "نعم" بصوت مفعم بالحنان، قالتها عالية كأنها تخرج من أعماق قلبها.

وضع القس اليد اليسرى لكل منهما فى يد الآخر و هو يتلو صلاته اللاتينية. لم يبق سوى مباركة خاتم الزواج، رمز الوفاء و الإخلاص إلى الأبد. غسل الكاهن الخاتمين فى وعاء من الفضة ثم رسم الصليب فى الهواء. وضع كل منهما الخاتم فى يد الآخر، هكذا أصبح اتحادهما أبديًا كأن هذا الخاتم المعدنى سيربط كل منهما بالآخر حتى القبر. و بعد أن أنهى القس صلاته الأخيرة ابتسمت "أنجيليك" بصفاء و زهد كأنها ترى أشياء كثيرة لا يراها الأخرون.

بدأ صوت الأورغن يخفت قليلًا بعد انصراف القس "كورونيل". السيد يجلس فى مكانه ثابتًا يرقب العروسين بنظرات الصقر. "هيبر" و زوجته رفعا رأسهما و هما مازالا راكعان بينما الدموع تنهمر من عيونهما بغزارة. ثم صمت الأورغن و دبت الحركة فى الحشود الغفيرة.

استمرت التراتيل لمدة ساعتين تقريبًا، ثم ظهر الرهبان بملابسهم البيضاء، اثنان منهم يحملان مبخرتين و اثنان يحملان الشمعدان المُذهب. وجود السيد جعل الاحتفال فى غاية التعقيد،

البعض يصافحه و البعض يقبله، و فجأة انحنى جميع رجال الكنيسة فى لحظة واحدة ثم جلسوا صامتين، بينما استمر الأطفال فى ترتيلاتهم. و فجأة صدح صوت الآنسة "كلارا"، لقد أصرت على الغناء فى هذا الحفل الأسطورى. لا شك أنه زواج معجزة بكل المقاييس. بينما حاملى المباخر يبخرون كل الحاضرين.

و فى النهاية ابتهجت الكاتدرائية بالكامل. بدأ الأورغن يعزف لحن الزفاف. التفت الجميع يرقب العروسين و هما يتبختران بخطوات ملكية، صعدت بعض النساء على المقاعد لتتابع بوضوح، وقفت "أنجيليك" برهة عاجزة عن الحركة، ثم عادت تتحرك ببطء شديد. فُتحت أبواب الكنيسة الضخمة. كانت الحشود المتلهفة بالخارج أكثر من الحشود التى بالداخل. تحجرت "أنجيليك" فى مكانها مرة أخرة. شعرت فى هذه اللحظة أنها وصلت إلى قمة السعادة و النشوة. كان الله كريمًا معها فى تحقيق كل أحلامها. سرت البرودة فى جسدها رويدًا رويدًا. شعر بها "فيليشيا" فقبلها أمام الجميع ليبعث فى نفسها الثقة و البهجة. و فى هذه القبلة لفظت "أنجيليك" نفسها الأخير.

لم يندهش السيد لموتها، بل أقام عليها الصلاة بهدوء شديد. فى هذه اللحظة تأكدت "هيبرتين" أن العقاب انتهى. و عاد "فيليشيا" إلى داره حاملًا ثوب الزفاف بدون "أنجيليك"...

تمت بحمد الله.

كتب للمترجم.
*أفلاطون فى عصر الفضاء.
*زهرة الصحراء.
*القرصان.
*12 قصة مهاجرة.
*أفكار متناقضة.
*الحلم.
*كليوباترا.. أميرة الحب و الحرب.
*الطاعون.
*قرطاجنة.
*أساطير الهنود الحمر.
*أساطير الإغريق.
*إسكندر عبقرى السيف و الفكر.
*يوليوس قيصر العسكرى و السياسى.
*التسامح.
*مقدمة فى الفينومينولوجيا.
*حضارات أمريكا القديمة.
*حكايات البحر.
*تفسير الأحلام.
*أكلة لحوم البشر.
*انتظار و قصص أخرى.
*رحلة إلى مركز الأرض.
*3 حكايات.
*القراصنة و الذهب.